

فوائد على قصيدة (عنوان الحكم)

لأبي الفتح البُستي (المتوفى: ٤٠٠هـ)

أكثر من ١٥٠ فائدة

تأليف

أبي عبد الله محمد المصنعي

وفقه الله تعالى



زوائد المؤلفات على
كتب المنهج الدراسي الميسر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

فهذا تعليق ميسر على (عنوان الحكم) للناظم الأديب علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُستِي، أَبُو الفَتْح (المتوفى: ٤٠٠ هـ).

وقد شرحها غير واحد من أهل العلم، وتعلیقنا عليها على طريقة الفوائد والقواعد، حتى نضيف إلى شروح هذه القصيدة أسلوبًا جديدًا.

وَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ تُرْوَى مِنْ طَرِيقِ أَبِي عُثْمَانَ الصَّابُونِيِّ وَغَيْرِهِ، وَفِي أَبْيَانِهَا زِيَادَةٌ وَنُقْصَانٌ فِي بَعْضِ الطَّرُقِ.

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، لَكِنَّا سَنَعْتَمِدُ عَلَى الْمُثَبَّتِ فِي شَرْحِ النَّيْسَابُورِيِّ وَغَيْرِهِ.

والله الموفق.

كتبه أبو عبد الله المصنعي

١٤٤٨ هـ بدولة ليبيا، مدينة الكفرة، أفريقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

نص المنظومة

- ١- زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ تُقْصَانُ
- ٢- وَكُلُّ وَجْدَانٍ حَظًّا لَثَبَاتٍ لَهُ
- ٣- يَأْغَامِرُ لِخَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِدًا
- ٤- وَيَا حَرِيصًا عَلَى الْأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا
- ٥- زِعَ الْفُؤَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزَيْنَتِهَا
- ٦- وَأَرَعَ سَمْعَكَ أَمْثَالًا أَفْصَلَهَا
- ٧- أَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ
- ٨- يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ
- ٩- أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فُضَائِلَهَا
- ١٠- وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي
- ١١- وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ
- ١٢- وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا
- ١٣- مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَحْمَدْ فِي عَوَاقِبِهِ
- ١٤- مَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي طَلِبِ
- ١٥- مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَاعًا فَلَيْسَ لَهُ
- ١٦- مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالِ النَّاسِ قَاطِبَةً
- ١٧- مَنْ سَأَلَ النَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ
- وَرَبِحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ
- فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فَقْدَانُ
- بِاللَّهِ هَلْ لِخَرَابِ الْعُمْرِ عُمْرَانُ
- أُنْسِيتَ أَنْ سُرُورَ الْمَالِ أَحْزَانُ
- فَصَفُوهَا كَدَرٌ وَالْوَصْلُ هِجْرَانُ
- كَمَا يَفْصَلُ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ
- فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
- أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
- فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ
- عُرُوضُ زَلَّتْهُ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ
- يَرْجُونَكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانُ
- فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
- وَيَكْفِيهِ شَرٌّ مَنْ عَزَّوَا وَمَنْ هَانُوا
- فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانُ
- عَلَى الْحَقِيقَةِ إِخْوَانُ وَأَخْدَانُ
- إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَانُ
- وَعَاشَ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذْلَانُ

١٨- مَنْ كَانَ لِلْعَقْلِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ غَدَا

١٩- مَنْ مَدَّ طَرَفًا لِفَرْطِ الْجَهْلِ نَحْوَهُوَّى

٢٠- مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمْ نَصَبًا

٢١- وَمَنْ يُفْتِشْ عَنِ الْإِخْوَانِ يَقْلُهُمْ

٢٢- مَنْ اسْتَشَارَ صُرُوفَ الدَّهْرِ قَامَ لَهُ

٢٣- مَنْ يَزْرَعُ الشَّرَّ يَحْصُدُ فِي عَوَاقِبِهِ

٢٤- مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى النَّاشِرَارِ نَامَ وَفِي

٢٥- كُنْ رِيْقَ الْبَشَرِ إِنَّ الْحُرَّ هَمَّتْهُ

٢٦- وَرَافِقِ الرَّفْقِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ فَلَمْ

٢٧- وَلَا يَغْرَنَّكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ

٢٨- أَحْسَنَ إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدَرَةٌ

٢٩- فَالرُّوضُ يَزْدَانُ بِالنُّوَارِ فَاغْمَةٌ

٣٠- صُنْ حُرَّوَجْهَكَ لَا تَهْتِكْ غِلَالَتَهُ

٣١- فَإِنْ لَقِيتَ عَدُوًّا فَالْقَهْ أَبَدًا

٣٢- دَعْ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا

٣٣- لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَعْرِى مِنْ ثَقَى وَنَهَى

٣٤- وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَالَتْهُ دَوْلَتُهُ

٣٥- سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بِاقِلْ حَصْرُ

٣٦- لَا تُودِعِ السَّرَّوْشَاءَ يَبُوحُ بِهِ

٣٧- لَا تَحْسَبِ النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ

٣٨- مَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَاءٍ لَوَارِدِهِ

وَمَا عَلَى نَفْسِهِ لِلْحِرْصِ سُلْطَانُ

أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزِيَانُ

لِأَنَّ سَوْسَهُمْ بَقِيَ وَعِدْوَانُ

فُجِّلَ إِخْوَانُ هَذَا الْعَصْرِ خَوَانُ

عَلَى حَقِيقَةِ طَبْعِ الدَّهْرِ بَرَهَانُ

نَدَامَةٌ وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبْرَانُ

قَمِيصُهُ مِنْهُمْ صِلْ وَتَعَبَانُ

صَحِيفَةٌ وَعَلَيْهَا الْبَشَرُ عُنْوَانُ

يَنْدَمُ رَفِيقٌ وَلَمْ يَذْمَمْهُ إِنْسَانُ

فَالْخَرَقُ هَدْمٌ وَرَفْقُ الْمَرْءِ بَنِيَانُ

فَلَنْ يَدُومَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِمْكَانُ

وَالْحُرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَزْدَانُ

فَكُلُّ حُرٍّ لِحُرِّ الْوَجْهِ صَوَانُ

وَالْوَجْهُ بِالْبَشْرِ وَالْبِشْرَاقِ غُضَّانُ

فَلَيْسَ يَسْعَدُ بِالْخَيْرَاتِ كَسْلَانُ

وَأَنْ أَظَلَّتْهُ أَوْرَاقٌ وَأَغْصَانُ

وَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتْهُ أَعْوَانُ

وَبَاقِلٌ فِي ثَرَاءِ الْمَالِ سَحْبَانُ

فَمَارَعَى غَنَمًا فِي الدَّوِّ سِرْحَانُ

غَرَائِزُ لَسَتْ تَحْصِيهِنَّ أَلْوَانُ

نَعَمْ وَلَا كُلُّ نَبْتٍ فَهُوَ سَعْدَانُ

٣٩- لَا تَخْدِشَنَّ بِمَطْلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ

٤٠- لَا تَسْتَشِرْ غَيْرَ نَدْبٍ حَازِمٍ يَقْظِ

٤١- فَلِلَّتْ دَابِيرَ فُرْسَانَ إِذَا رَكِبُوا

٤٢- وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِيْتُ مَقْدَرَةٌ

٤٣- فَلَا تَكُنْ عَجَلًا بِأَمْرٍ تَطْلُبُهُ

٤٤- كَفَى مِنَ الْعَيْشِ مَا قَدْ سَدَّ مِنْ عَوَزٍ

٤٥- وَذُو الْقَنَاعَةِ رَاضٍ مِنْ مَعِيشَتِهِ

٤٦- حَسْبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خَلَا يَعَاشِرُهُ

٤٧- هُمَا رَضِيْعَا لِبَانِ حِكْمَةٍ وَتَقَى

٤٨- إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنُ فَلَهُ

٤٩- يَا ظَالِمًا فَرَحًا بِالْعَزِّ سَاعَدَهُ

٥٠- مَا اسْتَمَرَ الظُّلْمَ لَوْ أَنْصَفْتَ أَكْلَهُ

٥١- يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْمَرَضِيُّ سِيرَتُهُ

٥٢- وَيَا أَخَا الْجَهْلِ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي لُجَجِ

٥٣- لَا تَحْسَبَنَّ سُرُورًا دَانِمًا أَبَدًا

٥٤- إِذَا جَفَاكَ خَلِيلٌ كُنْتَ تَأَلَّفُهُ

٥٥- وَإِنْ نَبَتْ بِكَ أَوْطَانُ نَشَأْتَ بِهَا

٥٦- يَا رَافِلًا فِي الشَّبَابِ الرَّحْبِ مُنْتَشِيًا

٥٧- لَا تَغْتَرِرْ بِشَبَابٍ رَائِقٍ نَضِرِ

٥٨- وَيَا أَخَا الشَّيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ لَمْ

٥٩- هَبِ الشَّيْبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا

فَالْبِرُّ يَخْدِشُهُ مَطْلٌ وَلَيَّانُ

قَدْ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارُ وَإِعْلَانُ

فِيهَا أَبْرُوا كَمَا لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ

وَكُلُّ أَمْرٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَانُ

فَلَيْسَ يَحْمَدُ قَبْلَ النُّضْجِ بَحْرَانُ

فَفِيهِ لِلْحَجَرِ إِنْ حَقَّقْتَ غُنْيَانُ

وَصَاحِبُ الْحَرَمِ إِنْ أَثَرَى فَفَضْلَانُ

إِذَا تَحَامَمَاهُ إِخْوَانُ وَخَلَّانُ

وَسَاكِنَا وَطْنٍ مَالٌ وَطُغْيَانُ

وَرَاءَهُ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ أَوْطَانُ

إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ الْإِدْهَرِ يُقْظَانُ

وَهَلْ يَلِدُ مَذَاقَ الْمَرْءِ خُطْبَانُ

أَبْشَرَ فَأَنْتَ بَغِيرِ الْمَاءِ رِيَانُ

فَأَنْتَ مَا بَيْنَهُمَا لَا شَكَّ ظَمَانُ

مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

فَاطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ

فَارْحَلْ فَكُلُّ بِلَادٍ إِلَهُ أَوْطَانُ

مَنْ كَانَسَهُ هَلْ أَصَابَ الرُّشْدَ نَشْوَانُ

فَكَمْ تَقْدَمَ قَبْلَ الشَّيْبِ شُبَّانُ

يَكُنْ لِمِثْلِكَ فِي الْإِسْرَافِ إِمْعَانُ

مَا عُذِرَ أَشْيَبُ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

إِنْ شَيْعَ الْمَرْءُ إِخْلَاصَ وَإِيْمَانُ
وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ
فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي التَّبْيَانَ تَبْيَانُ
أَنْ لَمْ يَقْلُهَا قَرِيعُ الشُّعْرِ حَسَّانُ

٦٠- كُلُّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا
٦١- وَكُلُّ كَسْرِ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبِرُهُ
٦٢- خُذْهَا سَوَائِرَ أَمْثَالٍ مُهَذَّبَةً
٦٣- مَا ضَرَّ حَسَّانَهَا وَالطَّبْعُ صَانِعُهَا

ترجمة الناظم

اسمه ونسبه: عليُّ بنُ محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز أبو الفتح البُستي (ت ٤٠٠ هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وأكثرهم يسمي أباه: أحمد.

ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته.

علمه: الأديب البليغ، شاعر عصره وكاتبه.

وكان من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، وخدم ابنه يمين الدولة (السلطان محمود بن سبكتكين) ثم أخرجته.

وله ديوان شعر صغير، فيه بعض شعره.

وفي كتب بالأدب كثير من نظمه غير مدوّن.

ثناء العلماء عليه:

قال أبو الحسن عبد الغافر الفارسي - وسماه (علي بن أحمد البستي) - أبو الفتح الكاتب الشاعر، أوحده عصره في الفضل والأفضال والمروءة، طبقت بلاغته في النثر والنظم طبق الأرض، وذاع ذكره في الآفاق وسار شعره في البلاد، وطريقته في الحكمة معنى، وفي التجنيس لفظاً لا ينكرها أحد.

وقال ابن عساكر: شاعر سائر الشعر له أسلوب في التجنيس عجيب، ربما أفضى به طلب التجنيس إلى التكلف.

وقال أبو عبد الله الحافظ الحاكم: الأديب الكاتب النحرير، وهو واحد عصره، ذكر لي سماعه بتلك الديار من أصحاب علي بن عبد العزيز وأقرانه، وأكثر عن أبي حاتم ابن حبان البستي وأهل عصره، ورد نيسابور غير مرة وأفاد حتى أقر له الجماعة بالفضل. مات ببخارى.

وقال الذهبي: العلامة، شاعر زمانه، الكاتب... وله نظم في غاية الجودة، كبير، سائر بين الفضلاء... وكان كرامياً.

وقال ابن كثير: أبو الفتح البستي الشاعر المشهور، لازم أبا سليمان الخطابي، وصحبه وأخذ عنه، وله في تفضيل مذهب الشافعي، وتقريظ مختصر المزني، ومدح الكرامية، أشعار كثيرة... وقال أبو منصور الثعالبي في "اللفظ واللطائف": كان أجمع من رأيت للأدب والعلوم، فهو أديب نحوي، وفقه، وطبيب، ومنجم، وله في كل هذه الفنون ملحٌ وغررٌ.

وقال أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي: الأديب الكاتب الشاعر البليغ صاحب التجنيس المشهور. من شعراء اليتيمة.

ومن أقواله: وَلَهُ أَقْوَالٌ فِيهَا حِكْمَةٌ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: «بِالْمُحَالَةِ تَتِمُّ الْمَصَالِحَةُ». وَقَالَ: «الْإِنْقِبَاضُ طَلِيعَةُ الْأَعْرَاضِ»، وَقَالَ: «إِذَا صَحَّ الْإِعْتِقَادُ بَطَلَ الْإِنْتِقَادُ». وَهُوَ الَّذِي قَالَ: «الْمَرْحُ فِي الْكَلَامِ كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ». وَقَالَ -وَهِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ-: «مَنْ أَصْلَحَ فَاسِدُهُ أَرْغَمَ حَاسِدُهُ». وَمِنْ أَقْوَالِهِ: «مَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ»، وَقَالَ: «التَّجَرِبَةُ تُزِيلُ الشُّبْهَةَ».



بسم الله الرحمن الرحيم

١- زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ تُقْصَرُ وَرَبْحُهُ غَيْرَ مَحْضٍ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

التعليق:

فَقَوْلُهُ (مَحْضٌ) أَيُّ: خَالِصٌ؛ أَيَّ أَنَّ زِيَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا فِيهَا تَقْصُرُ مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الدُّنْيَا الَّتِي تَذُمُّ هِيَ مَا شَغَلَتْ عَنِ الْآخِرَةِ وَلَيْسَ بِجَمِيعِ الدُّنْيَا مَذْمُومٌ، فَالدُّنْيَا هِيَ مَرْزَعَةٌ فَمَنْ اسْتَعْلَاهَا فِي الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ وَقَدَّمَ لِآخِرَتِهِ فَهَذَا مَدْحٌ، وَمَنْ شَغَلَتْهُ عَنِ الْآخِرَةِ عَنِ الْوَاجِبَاتِ عَنِ الْمُسَابَقَةِ فِي الْخَيْرَاتِ فَهَذَا مَذْمُومٌ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فَالدُّنْيَا وَالْمَالُ وَالْجَاهُ الَّذِي يَشْغُلُ عَنْ طَاعَةِ، أَوْ يَجُرُّ إِلَى مَعْصِيَةٍ، فَهَذِهِ هِيَ الدُّنْيَا الْمَذْمُومَةُ الَّتِي وَرَدَ ذَمُّهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ زَادَتْ دُنْيَاهُ عَلَى حِسَابِ دِينِهِ فَهُوَ ارْزِدَادٌ فِي الشَّرِّ وَتُقْصَانٌ فِي الْخَيْرِ، كَلَّمَا زَادَتْ الدُّنْيَا زَادَ شَرُّهُ وَتَقْصُرُ خَيْرُهُ، وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ وَهَذَا هُوَ الدَّمُّ بِعَيْنِهِ. فَالْمُسْلِمُ أَحْرَصُ إِذَا زَادَتْ دُنْيَاهُ زَادَ خَيْرُهُ، زَادَ إِنْفَاقُهُ، زَادَ إِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ ذَا تِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْكَثِيرَ حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» [رواه الترمذي: ٣٧٠١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ زَادَتْ دُنْيَاهُ فَرَادَ خَيْرًا وَإِنْفَاقًا فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى، أَعْطَاكَ اللَّهُ الْمَالَ وَالصَّلَاحَ فَقَدْ أَعْطَاكَ فَضْلًا، وَزَادَكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ.

جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ [رواه البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥] أَنَّ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِاللَّدَرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»

قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَلَا أَعَلَّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتُحَمِّدُونَ، ذُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً»، فَرَجَعَ فَقَرَأَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَكَانَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُ عَلَى الْخَيْرِ فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى.
نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: (وَرِبْحُهُ غَيْرُ مُحْضٍ الْخَيْرِ خُسْرَانُ) الرَّبْحُ الْحَقِيقِيُّ الدَّائِمُ هُوَ التَّزَوُّدُ مِنَ التَّوَحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالطَّاعَةِ، هَذَا هُوَ الرَّبْحُ النَّافِعُ الَّذِي يَعُودُ عَلَى صَاحِبِهِ بِالْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].
وَالرَّبْحُ أَيْضًا يَأْتِي بِمَعْنَى الْفَوْزِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].



٢- وَكُلُّ وَجْدَانٍ حَظًّا لَثَبَاتٍ لَهُ فَإِنْ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فَقَدْ دَانَ

التعليق:

(وَجْدَانٌ) مَنْ وَجَدَ يَجِدُ أَيَّ حَصَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا عَلَيْهِ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى حُبٍّ، وَكُلُّ حُبٍّ حَظٌّ لَا ثَبَاتَ لَهُ. وَالْحَظُّ الْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا مَتَاعُ الدُّنْيَا: مَالٌ، جَاهٌ، مَا يُشَبَّهُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: (فِي التَّحْقِيقِ) عِنْدَ الْبَاقِينَ وَالْفَهْمِ الصَّحِيحِ، (فَقْدَانٌ) أَيُّ: زَائِلٌ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كُلُّ نَعِيمٍ دُنْيَوِيٍّ زَائِلٌ لَا يَدُومُ، فَهَذَا شَأْنُ الدُّنْيَا، شَأْنُ الدُّنْيَا سُرْعَانِ مَا تَزُولُ وَتَذْهَبُ، وَالَّذِي لَا يَزُولُ هُوَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ.

أَمَّا الدُّنْيَا فَكُلُّ مَا فِيهَا مِنْ كُنُوزٍ وَأَمْوَالٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَا بَدَّ أَنْ يَزُولَ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ يَضْرِبُ مَثَلًا لِلدُّنْيَا: ﴿اغْلُظُّوا أَنْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. بَيْنَمَا الدُّنْيَا كَالزَّهْرَةِ جَمِيلَةٍ إِذَا بِهَا تَبَسُّ ثُمَّ تَصِيرُ حُطَامًا لَا شَيْءَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: زِيَادَةُ الْأَرْزَاقِ وَقِلَّتُهَا لَا تَدُلُّ عَلَى صَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَا عَلَى فَسَادِهِ، فَكَوْنُ الشَّخْصِ يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَمْلِكُ هَذِهِ أَرْزَاقُ، يُوجَدُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ مَنْ هُوَ غَنِيٌّ كَعُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَيُوجَدُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ أَوْ الشَّرِّ مَنْ هُوَ غَنِيٌّ كَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ، فَالْمَالُ لَا يَعْنِي صَالِحًا وَلَا فَسَادًا وَإِنْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ ذَلِكَ. ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أَيُّ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنُّونَ أَوْ كَمَا تَقُولُونَ.

الفائدة الثالثة: (فإنَّ معناه في التَّحْقِيقِ فُقْدَانُ) كُلِّ مَالٍ لَا يُقَدِّمُهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ إِلَى الْآخِرَةِ بِالصَّدَقَاتِ وَأَفْعَالِ الْخَيْرِ وَالتَّفَقَّاتِ الْوَاجِبَةِ وَالزَّكَّوَاتِ فَهُوَ عِنْدَ النَّظَرِ الصَّحِيحِ أَشْبَهُ بِالْمَفْقُودِ. قَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [رواه الترمذي: ٢٤٧٠] أَنَّهُمْ دَبَّحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟» قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كِتْفُهَا قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كِتْفِهَا». يَعْنِي: بَقِيََتْ فِي الْآخِرَةِ، فَمَا تُقَدِّمُهُ هُوَ مَالُكَ الَّذِي تَجِدُهُ أَمَامَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي الْمَبَاحِ وَالْدُّنْيَا لَنْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ سَتَجِدُ فُقْدَانَهُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

وَفِي حَدِيثِ عُقْبَةَ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه أحمد: ١٧٣٣٣].

الفائدة الرابعة: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا مِنْ كَمَالِ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُحَقَّقَ الَّذِي تَمَّ عَقْلُهُ وَيَقِينُهُ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ صَاحِبُ عَقْلٍ رَاجِحٍ. وَهَذَا مَا خُوِذُ مِنْ قَوْلِهِ (فِي التَّحْقِيقِ).



٣- يَا عَامِرًا لِحَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِدًا بِاللَّهِ هَلْ لِحَرَابِ الْعُمَرِ عُمَرَانُ

التعليق:

(لِحَرَابِ الدَّارِ) وفي نسخة: (لِحَرَابِ الدَّهْرِ): أَي: مَا يَفْنَى مَعَ الْوَقْتِ وَالزَّمَانِ، وَحَرَابُ الْعُمَرِ يَعْنِي الْمَوْتَ، وَإِذَا كَانَ (لِحَرَابِ الدَّارِ)، فَلَمَقْصُودُ بِالْدَّارِ الدُّنْيَا.

نَذْكُرُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: عُمْرُكَ هُوَ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي، فَلَا تُهْدِرْهُ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، وَكُلُّ يَوْمٍ أَوْ سَاعَةٍ تَمُرُّ مِنْ حَيَاتِكَ فَذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ عُمْرِكَ، كَمَا يُرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ، فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ اشْتَغَلَ بِتَعْمِيرِ الدُّنْيَا عَلَى حِسَابِ الْآخِرَةِ فَقَدْ عَطَلَ عَقْلَهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْمُرُ حَرَابَ الدُّنْيَا، بِتَخْرِيبِ حَيَاتِهِ وَعُمْرِهِ، وَبِتَخْرِيبِ حَسَنَاتِهِ وَآخِرَتِهِ، فَيَعْمُرُ الْحَرَابَ وَيَهْدِمُ الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ، وَهَذَا ضَعْفُ الْعَقْلِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]. فَمَنْ قَدَّمَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ لَمْ يَعْقِلْ، وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، فَهُوَ يَبِينُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ الْعَاقِلَ لَا يُؤْثِرُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ أَنْفَقَ عُمْرَهُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَقَدْ أَفْسَدَهُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُمَرَانِ النَّافِعِ؛ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي يَجِدُ نَفْسَهُ مُنْدَفِعَةً إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ، فَيُذَكِّرُ الْمَوْتَ عَوْنًا - بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى عُمَرَانِ الْآخِرَةِ، وَعَلَى عَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَخُتِمَتِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فَمَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ كَثِيرًا لَمْ يُفْتَنَ بِمَتَاعِ الْغُرُورِ.

٤- وَيَا حَرِيصًا عَلَى الْأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا أَنْسَيْتَ أَنْ سُورُوا الْمَالَ أَحْزَانُ

التعليق:

(أَنْسَيْتَ) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: «أَنْسَيْتَ» بفتح الألف والنون.

هَذَا الْبَيْتُ فِي ذَمِّ الطَّمَعِ وَالْحِرْصِ؛ فَإِنَّ الْحِرْصَ يُرَادُّ بِهِ الْمُبَالِغَةُ فِي طَلَبِ الشَّيْءِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْأَمْوَالِ: الْمُبَالِغَةُ فِي طَلَبِهَا وَجَمْعِهَا، وَهُوَ مَذْمُومٌ. (سُورُوا الْمَالَ) كَثُرَتْهُ، وَفَائِدَتُهُ، وَالْمُتَعَةُ بِهِ.

نَذَرْتُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ:

الضَّائِدَةُ الْأُولَى: الْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا سَبَبٌ - فِي الْغَالِبِ - لِفَسَادِ الدِّينِ، أَوْ لِكَسْبِ الْحَرَامِ، وَتَعَبِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ؛ فَالشَّخْصُ لَا يَزَالُ يَجْرِي وَرَاءَ الدُّنْيَا وَيَحْرِصُ عَلَيْهَا حَتَّى يَقَعَ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ، أَوْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ذُتِّبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ».

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ الدُّتِّيَّيْنِ إِذَا أُرْسِلَا إِلَى غَنَمٍ أَفْسَدَا فِيهَا فَسَادًا كَثِيرًا بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ، لَكِنَّ حِرْصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَحِرْصَهُ عَلَى الشَّرَفِ وَالْجَاهِ وَالْمَنْصِبِ، أَشَدُّ فَسَادًا لِدِينِهِ مِنْ فَسَادِ الدُّتِّيَّيْنِ فِي الْغَنَمِ.

فَالْحِرْصُ يَجُرُّ إِلَى فَسَادِ الدِّينِ، وَكُلُّ جِسْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ. وَقَدْ يَجُرُّ إِلَى احْتِسَابِ الْحَرَامِ، وَقَدْ يُلْهِى عَنِ الْعَمَلِ الْآخِرِيِّ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْهَاجِمُ التَّكَاثُرُ﴾.

تَذَهَبُ الْعُقُولُ بِسَبَبِ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَعَلَى الدُّنْيَا، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَيْتَ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيَذْهَبَنَّ بِهِ كُلُّهُ، قَالَ: فَيَقْتُلُونَ عَلَيْهِ، فَيَقْتُلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعُونَ»، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْإِنْسَانَ، مَهْمَا جَمَعَ، لَا يَمْلَأُ نَفْسَهُ إِلَّا التَّرَابُ.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ». فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ فَتَهَدَّم الْقَبْرُ عَلَيْهِ، وَصَارَ تُرَابًا، ذَاكَ الَّذِي يَقْطَعُ حِرْصَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: ضِدُّ الْحِرْصِ الْقَنَاعَةُ، وَهِيَ الرِّضَا بِمَا تيسَّرَ، وَتَرْكُ مَا يُبْلِغِي وَيَشْغَلُ.

وَتَمَرَّتْهَا - غَالِبًا - الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ، وَصَلَاحُ الدِّينِ، وَرَاحَةُ الْقَلْبِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنِعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»، وَهَذَا هُوَ الْمُلْكُ الْحَقِيقِيُّ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَأَنْتَ ذُو قَنَاعَةٍ، وَفِي أَمْنٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: سُورُ الْمَالِ قَدْ يُؤَلِّدُ الْأَحْزَانَ؛ فَاَلْمَالُ حِينَ تَحْصُلُ عَلَيْهِ وَيَكْثُرُ فِي يَدِكَ، قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِلْهَمِّ وَالْغَمِّ: كَيْفَ يَدْخُلُ؟ وَكَيْفَ يَخْرُجُ؟ وَكَيْفَ يَبْقَى؟ وَكَيْفَ يُحَافِظُ عَلَيْهِ؟ وَهَذِهِ هُمُومُ النَّفْسِ، وَقَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِمُشْكِلَاتٍ تَذْهَبُ بِرَاحَةِ قَلْبِكَ وَبِدَنِكَ؛ يَأْتِي مَنْ يُشَاغِلُكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ، وَيَفْتَحُ مَعَكَ الْمَشَاكِلَ مِنْ أَجْلِهِ، فَلَا تَزَالُ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ بِسَبَبِ ذَلِكَ، أَوْ يَجْرِي الْإِنْسَانُ وَرَاءَ الْمَالِ، فَيَأْخُذُ ذَلِكَ جُهْدَهُ وَوَقْتَهُ؛ فَاَلْمَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ يُصْبِحُ عَذَابًا وَلَيْسَ سُورًا، وَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ...»، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا»، أَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.



٥- زِعِ الْفُؤَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَصَفُوهَا كَدَرَ وَالْوَصْلُ هَجْرَانُ

التعليق:

(زِعِ الْفُؤَادَ) فِي بَعْضِ النُّسخِ: (دع)، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، (وَزِينَتِهَا) وَزِينَةُ الدُّنْيَا: الْمَالُ، وَالْجَاهُ، وَالنِّسَاءُ...، (فَصَفُوهَا) وَصَفُوهَا: خَالِصُهَا، وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْهَا بِدُونِ تَعَبٍ، (كَدَرَ): أَيَّ مَحْلُوطٍ بِمَا يُعَيِّرُ صَفْوَهُ مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ وَفُقْدَانٍ. (هَجْرَانُ) بِكسر الهماءِ وَضَمِّهِ. بِمَعْنَى: مُنْقَطِعٌ؛ فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يَنْتَهِي وَيَنْقَطِعُ، إِمَّا بِفَقْدِهِ، وَإِمَّا بِالْمَوْتِ عَنْهُ.

نَذْكُرُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْعَاقِلُ يَجْعَلُ الدُّنْيَا فِي يَدِهِ، لَا فِي قَلْبِهِ؛ فَدُخُولُهَا الْقَلْبَ يُزَاحِمُ الْخَيْرَ، وَيُضْعِفُ الْإِيمَانَ، وَهَذَا مَذْمُومٌ. فَأَبْعِدْ قَلْبَكَ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَصْبَحَ يَظُنُّ أَنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ زِينَةٌ وَصَلَاحٌ فِي نَفْسِهِ وَدِينِهِ، وَأَنَّ قِلَّةَ الْمَالِ عَكْسُ ذَلِكَ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ فَقَدْ يَكْثُرُ الْمَالُ عِنْدَ الْبَعْضِ وَهُوَ فَاسِدٌ، وَقَدْ يَكْثُرُ عِنْدَ الْبَعْضِ وَهُوَ صَالِحٌ. وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ يُحَذِّرُ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. الْآيَةُ، وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (○) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿[الْقِيَامَةِ: ٢٠-٢١]. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَارَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»، يَرَى دَائِمًا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ، «وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ خَالٍ مِنَ الْمُنْغَصَاتِ وَالْكَدَرِ؛ فَالدُّنْيَا، مَهْمَا كَانَ صَفْوُهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يُجَالِطَهُ كَدَرٌ.

وَكَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ يَنَالُهَا صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الْإِمْكَانِ

وقال آخر:

طَبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْذَاءِ وَالْأَكْدَارِ
بَلْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البَلَد: ٤]، فَلَا يَرَأُ الْإِنْسَانُ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ
وَهُمْ حَتَّى يَمُوتَ؛ فَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَلَّا يَشْغَلَهُ هَذَا الْكَدَرُ عَنِ النَّعِيمِ الصَّافِي الْمَقِيمِ فِي
الْجَنَّةِ.

الفائدة الثالثة: مَنْ جَاءَتْهُ الدُّنْيَا فَلَا يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ دَائِمٌ، بَلْ سُرْعَانَ مَا يَنْقَطِعُ؛ إِمَّا بِالْمَوْتِ، وَإِمَّا
بِالْفَقْرِ. «هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِرًا...».
وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ يَصِفُ الدُّنْيَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْزَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يُوسُفَ: ٢٤]. فَبَيْنَمَا الدُّنْيَا فِي الزُّخْرِفِ وَالزَّيْنَةِ،
وَإِذَا بِالْإِنْسَانِ عِنْدَهُ الْمَالُ وَالْبَيْتُ وَالزَّوْجَةُ، فَيَسْغَرُّ بِهَا الْإِنْسَانُ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ إِمَّا بِالْفَقْرِ،
وَإِمَّا بِالْمَوْتِ، فَيَذْهَبُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيُحَاسِبُ عَلَى مَا وَقَعَ فِيهَا، وَالْعَاقِلُ يَغْتَنِمُ وُجُودَ الدُّنْيَا
فِي يَدِهِ فِي الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»، وَمِنْهَا: «وَعِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ». فَيُنْفِقُ
الْإِنْسَانُ، وَيَبْدُلُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَهَذَا هُوَ الاسْتِغْلَالُ الْحَقِيقِيُّ لِلدُّنْيَا.



٦- وَأَرَعَ سَمْعَكَ أَمْثَالًا أَفْصَلُهَا كَمَا يُفْصَلُ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ

التعليق:

(وَأَرَعَ) أَصَغَ وَاسْمَعُ بِاهْتِمَامٍ. (أَمْثَالًا) حِكْمًا. (يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ) وهما مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي تُدْخَرُ، الْيَأْقُوتُ حَجَرٌ كَرِيمٌ، وَالْمَرْجَانُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ.

نَذْكُرُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَوَّلُ الْعِلْمِ حُسْنُ الْإِسْتِغَاةِ وَالْإِنْصَاتِ، إِذَا سَمِعْتَ جَيِّدًا وَأَنْصَتَ، أَتَمَرَ هَذَا الْفَهْمُ وَالْحِفْظُ، فِي حَدِيثٍ جَرِيرٍ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ»، أَيْ: قُلْ لِلنَّاسِ: أَنْصِتُوا وَاسْمَعُوا.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٢٠٤]، فَالِاسْتِغَاةُ هَذَا هُوَ اسْتِغَاةُ تَأْمُلٍ وَتَدَبُّرٍ؛ لِأَجْلِ الْفَهْمِ وَالْحِفْظِ، بِخِلَافِ الَّذِي يَسْمَعُ وَهُوَ مَشْغُولُ الذَّهْنِ، أَوْ يَتَحَدَّثُ مَعَ زَمِيلِهِ، فَهَذَا غَالِبًا لَا يَفْهَمُ جَيِّدًا. **الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ:** فِي قَوْلِهِ: «أَمْثَالًا» أَيْ: حِكْمًا، الْمَقْصُودُ بِالْحِكْمَةِ هُنَا: جُمْلَةٌ مِنَ الْقَوْلِ مُخْتَصَرَةٌ تَحْمِلُ مَعَانِيَ عَظِيمَةً؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ لَهَا عَدَدٌ مِنَ الْمَعَانِي، وَكَثِيرٌ مِنَ الْحِكَمِ تَجْرِي تَجْرَى الْأَمْثَالِ، وَبَعْضُهَا قَدْ لَا يَكُونُ مَثَلًا، وَإِنَّمَا فِيهِ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: خَيْرُ الْقَوْلِ مَا كَانَ وَاضِحًا مُفَصَّلًا مَفْهُومًا لَدَى السَّامِعِ.

وَفِي قَوْلِهِ: «يُفْصَلُ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ» أَيْ: أَمَّا أَقْوَالُ نَفِيسَةٌ كَهَذِهِ اللَّالِي وَالْأَثْنَانِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ وَاضِحَةٌ مُفَصَّلَةٌ. وَسَيِّدًا مِنَ الْبَيْتِ السَّابِعِ فِي ذِكْرِ بَعْضِ الْحِكَمِ.

٧- أَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعِيدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

التعليق:

(تَسْتَعِيدُ) يَعْنِي: تَمِيلُ إِلَيْكَ قُلُوبُهُمْ وَتَحْتَرِمُكَ، وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ انْتَقَدَ هَذَا التَّعْبِيرَ، وَقَالَ: لَوْ قَالَ: «تَسْتَمِيلُ قُلُوبَهُمْ» كَانَ أَحْسَنَ.

وهذه أوَّلُ حِكْمَةٍ فِي هَذَا النِّظْمِ، ذَكَرَ قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ. وَنَذَكُرُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ.

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِمَا لَا يُخَالِفُ الْحَقَّ مِنْ أَصُولِ الشَّرِيعَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ. وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، إِذَا كَانَ لَدَيْكَ كَلِمَاتٌ حَسَنَةٌ فَاخْتَرِ مِنْهَا الْأَحْسَنَ وَالْأَفْضَلَ. وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي ذِكْرِ الْخُصُومَةِ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، هَذَا الدَّفْعُ وَالصَّبْرُ يُمِيلُ قَلْبَ الْعَدُوِّ إِلَى صَدِيقٍ وَحَبِيبٍ. وَأَحَقُّ النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ هُمُ الْوَالِدَانِ وَالْمُعَلَّمُونَ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَّبِعُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ، إِلَى آخِرِهِ.

وَأَيْضًا مَنْ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْإِحْسَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ، «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»، هَذَا حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ قَالَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، هَذَا حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ.

الفائدة الثانية: الإحسان مجلبة المحبة والامتنان، وفيه دفع لشر كثير، وهو معنى الآية السابقة: ﴿اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهو مراد الناظم من قوله: «تستعبد قلوبهم»، أي: تصير قلوبهم محبة لك، تسعد برؤيتك، وتفرح بخدمتك.

الفائدة الثالثة: الإحسان له أثره في قلوب الكثير، إلا من شذ، (فطالما استعبد الإنسان إحسانه)، أي: كثيرا ما يحصل الامتنان والمحبة بسبب الإحسان، وإن كان بعض الناس قد تحسن إليه ويزداد شرا أو لؤما، ويصدق فيه قول الشاعر:

إِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وقال الآخر:

أَعْلَمُهُ الرِّمَاءُ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
اسْتَدَّ يَعْنِي: أَصَابَ رَمِيًّا سَدِيدًا.

وقال آخر:

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ يُلَاقِ الَّذِي لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ
أَدَامَ لَهَا حِينَ اسْتَجَارَتْ بِقُرْبِهِ لَهَا مُحَضَّ أَلْبَانِ اللَّقَاحِ الدَّرَائِرِ
وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَكَامَلَتْ فَرَرْتُهُ بِأَنْيَابٍ لَهَا وَأَظَافِرِ
فَقُلْ لِلذَّوِي الْمَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءُ مَنْ بَدَا يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ شَاكِرِ
هَذَا مَثَلُ شَخْصٍ أَخَذَ حَيَوَانًا مُفْتَرِسًا، كَضَبٍ أَوْ ذَنْبٍ، وَرَبَّاهُ، فَلَمَّا كَبُرَ افْتَرَسَهُ، فَالطَّبْعُ اللَّئِيمُ غَلَابَ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.



٨- يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيْمَا فِيهِ خُسْرَانُ

التعليق:

هَذَا الْبَيْتُ يُعْتَبَرُ مَوْعِظَةً جَمِيلَةً وَطَيِّبَةً.

وَقَوْلُهُ: «يَا خَادِمَ الْجِسْمِ» أَي: بِالْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَالِ وَالشَّهَوَاتِ، فَهُوَ نِدَاءُ عِتَابٍ.

نَذْكُرُ ثَلَاثًا مِنَ الْفَوَائِدِ:

الفائدة الأولى: الْمُبَالَغَةُ فِي اللَّبَاسِ، وَتَتَّبِعُ الْمُوَضَّاتِ، وَتَتَّبِعُ الْأَكْلَاتِ الْفَخْمَةَ، وَشَغْلُ النَّفْسِ بِذَلِكَ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّهُ يُجَرِّئُ إِلَى الْخِيَلَاءِ وَالْعَفْلَةِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَحِيلَةٍ».

وَفِي قِصَّةِ قَارُونَ، لَمَّا كَثُرَ مَالُهُ، وَقَعَ فِي الْكِبْرِ، وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ حَدِيثُ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّتِهِ، مُرَجِّلًا رَأْسَهُ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ». قِيلَ: هَذَا هُوَ قَارُونَ، خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ مُتَكَبِّرًا مُتَجَبِّرًا، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: هَذَا الْمَالُ مِنْ تَفْكِيرِي وَخُطْطِي، وَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَانْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ إِلَى الْكِبْرِ وَالْكَفْرِ، ثُمَّ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ. **وَأَيْضًا فِي الْمَقَابِلِ**، الْإِنْسَانُ لَا يَهْمِلُ نَفْسَهُ، فَلَا يُبَالِغُ وَلَا يَهْمِلُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا عِنْدَهُ مَالٌ، لَكِنَّ هَيْئَتَهُ لَا تُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَنِيٌّ، فَانْصَحَهُ وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».

الفائدة الثانية: تَضْيِيعُ الْأَوْقَاتِ فِي خِدْمَةِ الْجِسْمِ يُؤَدِّي إِلَى خُسْرَانِ الْعُمْرِ. يَذْهَبُ الزَّمَانُ وَأَنْتَ تَجْرِي وَرَاءَ الْجِسْمِ وَالْمُوَضَّاتِ وَالْأَكْلَاتِ إِلَى آخِرِهِ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». مَغْبُونٌ يَعْنِي: يَخْسَرُ. كَمْ نَضْيِيعُ مِنْ أَوْقَاتِنَا! نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَنَا.

الفائدة الثالثة: من محاسن الإسلام أنه جاء بما يحتاجه الجسد والروح من غير مبالغة، فأعطى كل ذي حق حقه، فطلب الربح من جهة الدنيا خسران، لكن إن أعطيت جسمك حقه، وأعطيت روحك حقه فيما يصلحها في دينها، فأنت بذلك قد وفقت، حافظ على صحتك وهيتك، وحافظ على دينك وصفاء قلبك.

مرَّ رجلٌ من الأغنياء، فقال النبي ﷺ: مرَّ رجلٌ غني على رسول الله ﷺ، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُستمع، قال: ثم سكت، فمرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشفع، وإن قال أن لا يُستمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا». رواه البخاري، يعني: الفقير هذا خيرٌ من ذلك مثل الغني. وليس هذا على إطلاقه فالعبرة بالصلاح، لكن الناس يَغْتَرُّونَ دائماً بالمظاهر. والمطلوب أن يهتم الإنسان بدينه أكثر مما يهتم بدنياه.

وفي مسلم عن سعدٍ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»، لا يَكُنْ هُمُّ الْإِنْسَانِ أَنْ يَظْهَرَ بِهَاؤُهُ أَمَامَ الْآخَرِينَ، وَلْيَكُنْ هُمُّهُ أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُوَّتُهُ.

ويوضح هذا البيت الآتي.



٩- أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فُضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانٌ

التعليق:

هَذَا الْبَيِّنُ تَوْضِيحٌ لِلَّذِي قَبْلَهُ.

وَقَوْلُهُ: « أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ » بِالْعَمَلِ وَالْعِلْمِ حَتَّى اسْتَكْمَلَ الْفُضَائِلِ، (إِنْسَانٌ) ذُو كَمَالٍ.

نَذْكُرُ ثَلَاثًا مِنَ الْفَوَائِدِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْكَمَالُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ كَمَالُ الدِّينِ وَالْفُضَائِلِ وَالْأَخْلَاقِ، وَهُوَ كَمَالُ الرَّجُولَةِ

الْحَقِيقِيَّةِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

رِجَالٌ؛ أَي: جَمَعُوا كَمَالَ الرَّجُولَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)

أَي: الْمُسْلِمُ الْكَامِلُ، أَوْ الْمُسْلِمُ الْجَامِعُ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: كَمَالُ النَّفْسِ بِأَمْرَيْنِ أَاسَاسِيَيْنِ وَأَمْرٍ ثَالِثٍ تَتِمُّ لَهُمَا: (أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ

فُضَائِلَهَا).

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْإِيْمَانُ. الْأَمْرُ الثَّانِي: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهَذَانِ أَاسَاسٌ.

وَالْمِتْمُتُّ لَهَا الدَّعْوَةُ وَالتَّعْلِيمُ.

وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ الَّتِي قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَوْ تَدَبَّرَهَا النَّاسُ لَكَفَّتْهُمْ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. هَذَا كَمَالُ النَّفْسِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾. هَذَا إِكْمَالُ لِلْغَيْرِ.

وَبِذَلِكَ يَبْلُغُ الْمُسْلِمُ الْكَمَالَ الْأَعْلَى بِالنَّسْبَةِ لِلْخَيْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، كَمَالِ النَّفْسِ أَيْضاً بِأَمْرَيْنِ:

الأول: بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ وَدَفْعِ التَّقْصِيرِ؛ فَالذَّنْبُ - سَوَاءٌ كَانَ ارْتِكَاباً لِمُحَرَّمٍ أَوْ تَقْصِيراً فِي وَاجِبٍ - فَهُوَ نَقْصٌ، وَالْكَمَالُ يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ.
والأمر الثاني: بِالْإِزْدِيَادِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فَجَمَعَ بَيْنَ التَّوْبَةِ وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالتَّوْحِيدِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، الْكَمَالُ يَرْجِعُ إِلَى أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ أَيْضاً:

كَمَالِ الْعِلْمِ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ.
وَيُقَابِلُ الْعِلْمَ الْجَهْلُ وَهُوَ نَقْصٌ كَبِيرٌ، وَيُقَابِلُ الْعَقْلَ الطُّيْشُ، وَهُوَ أَيْضاً نَقْصٌ كَبِيرٌ.
الفائدة الثالثة: حَيَاةُ الْأَجْسَامِ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ جَمِيعِ الْخَلْقِ، سَوَاءٌ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الْجِنِّ أَوْ الْحَيَوَانَاتِ إِلَى آخِرِهِ، وَأَمَّا حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ النُّفُوسِ فَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْعُقَلَاءِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَالْجَنَّةُ الْعَاجِلَةُ الَّتِي تُثْمِرُ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ.
وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَالْمُسْلِمُ يَحْرِضُ عَلَى الْكَمَالِ؛ فَكَوْنُكَ تَقْدِرُ عَلَى الْكَمَالِ وَتُصِرُّ عَلَى النَّقْصِ هَذَا عَيْبٌ فِيكَ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْباً
كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

١٠- وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي عُرُوضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وَغُفْرَانٌ

التعليق:

قوله: (عُرُوضِ زَلَّتِهِ) هِيَ الزَّلَّةُ الْعَارِضَةُ النَّادِرَةُ تَظْهَرُ مِنْهُ. (صَفْحٌ وَغُفْرَانٌ) الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ وَالْغُفْرَانُ، معانيها متقاربة.

الصَّفْحُ هُوَ: الإِعْرَاضُ عَنِ الذَّنْبِ، وَأَنْ تَبْدِيَ لِلْمُذْنِبِ صَفْحَةً جَمِيلَةً، وَلَا كَأَنَّ شَيْئاً صَارَ. ويكونُ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْعَجْزِ أَيْضًا، وَقَبْلَ الْعَذَابِ أَوْ الْإِنْتِقَامِ. وَالصَّفْحُ الْجَمِيلُ هُوَ: الَّذِي لَا عِتَابَ فِيهِ، وَلَا ذَمٌّ وَلَا لَوْمٌ.

والعفو: تركُ المؤاخَذَةِ عَلَى الذَّنْبِ أَوْ بَعْضِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ. أَوْ: التَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وَتَرْكُ الْإِنْتِقَامِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ. وَقَدْ يَصْحَبُهُ عِتَابٌ، وَيَكُونُ قَبْلَ الْعَذَابِ وَالْحِسَابِ أَوْ بَعْدَ بَعْضِهِ. وَالْغُفْرَانُ، هُوَ: إِسْقَاطُ الْعِقَابِ مَعَ السَّتْرِ.

ويكونُ قَبْلَ الْعَذَابِ وَالْحِسَابِ. فَالْعَفْوُ: إِسْقَاطُ الْعَذَابِ الْجُسْمَانِيِّ، وَالْمَغْفَرَةُ: إِسْقَاطُ الْعَذَابِ الرُّوحَانِيِّ. وَالْعَفْوُ: يَكُونُ قَبْلَ الْعُقُوبَةِ بِخِلَافِ الْغُفْرَانِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَهُ عِقُوبَةٌ. وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا»، مِنْ بَابِ التَّرْقِي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْحَسَنِ إِلَى الْأَحْسَنِ، وَمِنَ الْفَضْلِ إِلَى الْأَفْضَلِ.

فَظْهَرَ أَنَّ الصَّفْحَ أَعْلَاهَا، ثُمَّ الْغُفْرَانَ، ثُمَّ الْعَفْوَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: طُبِعَ الخَلْقُ عَلَى وُجُودِ خَطَاٍ وَزَلَّةٍ وَنَقْصٍ، فَلَا تُفَكِّرُ فِي عَدَمِ وُجُودِهَا، لَا تَقُلْ: أُرِيدُ صَاحِبًا لَا عَيْبَ فِيهِ، أُرِيدُ صَدِيقًا لَا يُخْطِئُ فِي حَقِّي، لَكِنْ فَكِّرْ فِي طَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا. لَا بُدَّ أَنْ يُوْجَدَ التَّقْصِيرُ وَالْخَطَاُ، فَلْيَكُنْ فَكْرُكَ كَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهَا، وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ.

الفائدة الثانية: مِنْ أَمَثَلِ الطَّرِيقِ لِدَفْعِ تِلْكَ الْإِسَاءَةِ إِلَيْكَ الْعَفْوُ وَعَظُّ الطَّرَفِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ لِأَنَّ هَذَا يُخَفِّفُ الْعَدَاوَةَ وَيَدْفَعُ شَرًّا كَثِيرًا، وَهَذَا غَالِبًا فِي حَقِّ مَنْ كَانَ تَعَدِّيهِ زَلَّةً، أَمَّا مَنْ كَانَ دَائِمَ الْعَدَاوَةِ فَتَنْظُرُ الْمَصْلَحَةَ فِي دَفْعِهِ بِالصَّبْرِ أَوْ بِالشَّدَّةِ وَالْمُعَاقِبَةِ بِالْمِثْلِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٠، ٤١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فَالْحِكْمَةُ أَنْ تَنْظُرَ الْمَصْلَحَةَ لَا أَنْ تَنْتَصِرَ لِنَفْسِكَ، وَلَكِنْ أَنْظُرِ الْأَفْضَلَ لَكَ وَلَهُ وَلِغَيْرِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

الفائدة الثالثة: مَنْ يَدْقُقُ فِي أَخْطَاءِ النَّاسِ يَطُولُ هَمُّهُ وَيَزْدَادُ حَتَقُهُ وَيَكْثُرُ حَسَدُهُ.

التَّدْقِيقُ: قَالَ وَمَاذَا؟ وَكَيْفَ فَعَلَ؟ وَمَاذَا تَأَخَّرَ؟ وَمَاذَا تَقَدَّمَ؟

فَأَنْتَ الْمُتَضَرَّرُ الْأَوَّلُ؛ يَضِيقُ صَدْرُكَ، يَزْدَادُ حَسَدُكَ، تَسُوءُ أَخْلَاقُكَ. وَهَذَا أَرَشَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾. انْظُرْ إِلَى أَخْطَاءِ غَيْرِكَ وَقُلْ: وَأَنَا أَيْضًا عِنْدِي أَخْطَاءٌ، عِنْدِي ذُنُوبٌ، وَأَحِبُّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرَ ذَنْبِي وَأَنْ يَعْفُو عَنِّي، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.



١١- وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ يَرْجُونَ ذَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانٌ

التعليق:

قوله: (وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ) أي: في الدهر، في زَمَانِكَ. (مِعْوَانٌ) أي: كثير العون، (لِذِي أَمَلٍ) لِمَنْ يَأْمُلُ فِيكَ وَيَرْجُو أَنْ تُعِينَهُ. (يَرْجُونَ ذَاكَ) يعني: عَطَاءَكَ وَمُسَاعَدَتَكَ. (فَإِنَّ الْحُرَّ) الْحُرُّ هُنَا بِمَعْنَى الرَّجُلِ الْخَيْرِ، (مِعْوَانٌ) يُحِبُّ مُعَاوَنَةَ الْآخَرِينَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الْكَرَمُ صِفَةٌ جَمِيلَةٌ وَمَدْحٌ رَفِيعٌ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا كَرِيمٌ وَيُحِبُّ الْكُرَمَاءَ؛ فَاتَّصَفَاكَ بِالْكَرَمِ اتَّصَفَاكَ بِصِفَةٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْحَدِيثُ الَّذِي يُحْسِنُهُ الْأَلْبَانِيُّ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ. وَالنَّبِيُّ ﷺ: (كَانَ أَجُودَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)، وَلَا يَزَالُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ يَتَصَفُّونَ بِالْكَرَمِ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ.

الفائدة الثانية: خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَهَذَا هُوَ نَصُّ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ قَالَ: (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَآنَ أُمِئِّي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا). أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ بِمَالِهِ وَجَاهِهِ وَبِعِلْمِهِ، وَنَفْعُ النَّاسِ بِالْعِلْمِ هُوَ أَرْفَعُ أَنْوَاعِ النَّفْعِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الفائدة الثالثة: مَنْ أَحْسَنَ فِيكَ الظَّنَّ وَكَانَ مُحْتَاجًا عَفِيفًا - لَيْسَ مُتَسَوِّلًا يَسْأَلُ هُنَا وَهُنَا كَثِيرَ السُّؤَالِ - وَاحْتِاجَ اضْطَرَّ إِلَيْكَ فَكُنْ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّهِ وَأَكْرِمْهُ.

الشَّخْصُ الْعَفِيفُ: الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى إِعَانَةٍ يَنْبَغِي أَنْ يُعَانَ، لَيْسَ كَالَّذِي يَدُورُ عَلَى النَّاسِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَعِينِي مِنْكَ أَوْ مِنْ غَيْرِكَ.

١٢- وَأَشَدُّ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَاتَمَكَ أَرْكَانُ

التعليق:

قوله: (وَأَشَدُّ يَدَيْكَ) كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ التَّمَسُّكِ. (بِحَبْلِ اللَّهِ) الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

(مُعْتَصِمًا) الْإِعْتِصَامُ هُوَ الْإِلْتِجَاءُ وَالْإِحْتِمَاءُ، يُقَالُ: اعْتَصَمَ بِالْجَبَلِ يَعْنِي: اخْتَمَى بِهِ.

(الرُّكْنُ) الْجَانِبُ الْأَفْوَى وَهَكَذَا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فَمَنْ تَعَدَّى الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَإِنَّهُ

سَيَنْتَقِلُ إِلَى ضَلَالٍ وَبِدْعَةٍ أَوْ شُرْكَ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ، فَلَا يَتِمُّ صَلَاحُ الْعَبْدِ حَتَّى يَتَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى فَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ.

الفائدة الثانية: الْإِعْتِصَامُ بِالْحَقِّ أَمَانٌ مِنَ الشُّرْكِ وَالْبِدْعِ، وَسَعَادَةٌ فِي الْقَلْبِ وَالْقَرِّ، قَالَ اللَّهُ

جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]؛ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي دِينِهِ، فِي عَقِيدَتِهِ، فِي آخِرَتِهِ.

الفائدة الثالثة: مَنْ تَعَصَّبَ لِغَيْرِ الْحَقِّ وَوَالَى وَعَادَى لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَتِلْكَ هِيَ الْحِزْبِيَّةُ الَّتِي

حَرَّمَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَجَرَّعَ خِيَانَةَ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَكَمَا قِيلَ: مَنْ أَعَانَ مُبْطِلًا عَلَى بَاطِلٍ سَلَّطَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفَّارِ وَفِي مَنْ يَتَعَصَّبُونَ بِالْبَاطِلِ: ﴿حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا

جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ

وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩]، يَتَصَارِعُونَ وَيَتَلَاوُمُونَ بَيْنَهُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

وَفِي سُورَةِ سَبَأٍ شَيْءٌ مِّنْ ذَلِكَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]، وَتَبِعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَاسٌ كَثِيرٌ، لَكِن مَّاذَا حَصَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، فَأَجَابَ فَرِيقُ الزَّعَامَةِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]. لَكِن لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، فَمَنْ تَعَصَّبَ لِلْبَاطِلِ هَذِهِ نَهَايَتُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.



١٣- مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَحْمَدْ فِي عَوَاقِبِهِ وَيَكْفِهْ شَرَّ مَنْ عَزَّوَا وَمَنْ هَانُوا

التعليق:

قوله: (يَتَّقِ) من الوقاية. (يَحْمَدُ) معناها هنا: يَسْلَمُ. (عَوَاقِبِهِ) نهاية أمره.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ التَّوْحِيدُ وَالسُّنَّةُ وَالطَّاعَةُ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] أَي: كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا زُمْ هَذِهِ التَّقْوَى الْبُعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَالْبِدْعِ وَالْمَعَاصِي، فَلَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ هُوَ مُتَّقٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

الفائدة الثانية: مِنْ ثَمَارِ التَّقْوَى حُسْنُ الْعَاقِبَةِ وَجَمِيلُ الْحَاقِمَةِ وَفَوْزُ الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فَالْمُتَّقِي يَسْلَمُ فِي عَوَاقِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ،

قَالَ اللَّهُ جَلَّ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ وَيَتَّقِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]؛ فَوْزٌ وَنَجَاةٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرِّ وَالشَّرِّ وَالْبِدْعِ، وَنَجَاةٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْحِزْبِ وَالْعَارِ.

الفائدة الثالثة: التَّقْوَى سَبَبٌ لِحِمَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَهُوَ الَّذِي يُدَافِعُ عَنْهُ وَهُوَ الَّذِي يَكْفِيهِ شَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وَمَعْنَاهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْوَلِيُّ هُوَ الْمُوَحِّدُ النَّقِيُّ.

١٤- مَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي طَلَبٍ فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانٌ

التعليق:

قوله: (اسْتَعَانَ) طَلَبَ الْعَوْنِ. (عَجَزٌ وَخِذْلَانٌ) وَالْعَجَزُ عَدَمُ الْقُدْرَةِ، وَالْخِذْلَانُ تَرُكُ النَّصْرَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الإِسْتِعَانَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا الْجَائِزُ وَمِنْهَا الْمَحْرَمُ وَمِنْهَا الشَّرُّ؛ فَمَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَذَلِكَ شَرُّ أَكْبَرٍ، وَمِنْهُ الإِسْتِعَانَةُ بِالْأَمْوَاتِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ. وَمَنْ اسْتَعَانَ فِي أَمْرٍ مُحَرَّمٍ فَذَلِكَ أَيْضًا مُحَرَّمٌ، أَمَّا مَنْ اسْتَعَانَ بِالْحَيِّ الْحَاضِرِ الْقَادِرِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَائِزِ فَذَلِكَ جَائِزٌ، وَالْحَدِيثُ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

الفائدة الثانية: مَنْ لَجَأَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْتَمَدَ قَلْبُهُ عَلَيْهِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يُتَيَلَّ بِالذُّلِّ وَالْقَهْرِ، وَيَرَى هَذَا الَّذِي اسْتَعَانَ بِهِ عَاجِزًا أَوْ خَازِلًا، فَمَنْ رَكَنَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذَلَّ، فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ أَنْ يَضَعَ قَلْبَهُ وَثِقَتَهُ فِي غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اجْعَلِ الْخُلُقَ أَسْبَابًا.

الفائدة الثالثة: اعْتِيَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى هُوَ التَّوَكُّلُ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ بَدَلِ الْأَسْبَابِ بِالطَّرِيقِ الْمُبَاحَةِ؛ التَّوَكُّلُ فِي الْقَلْبِ ثُمَّ تَبْدُلُ الْأَسْبَابَ الْمُبَاحَةَ لِلْحُصُولِ عَلَى الْمَرَادِ، وَهُوَ لَا يُتَنَافَى التَّوَكُّلُ، وَهَذَا هُوَ الدِّينُ وَالْعِبَادَةُ، بِخِلَافِ مَنْ وَضَعَ قَلْبَهُ عِنْدَ صَاحِبٍ قَبْرٍ يَتَكَيُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَسَيُنْجِيهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ.

١٥- مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَاعًا فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأَخْدَانٌ

التعليق:

قوله: (مَنَاعًا) مَنَاعٌ: كَثِيرُ الْمَنَعِ سَوَاءٌ لِمَالِهِ أَوْ عِلْمِهِ أَوْ جَاهِهِ، (لِلْخَيْرِ) وَالْخَيْرُ هُنَا الْمَالُ وَالْجَاهُ. (وَأَخْدَانٌ) أَصْحَابٌ، يَعْنِي: لَا يَبْقَى لَهُ أَصْحَابٌ صِدْقٍ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ الْبُخْلَ وَالشُّحَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ إِخْوَانًا صِدْقٍ، سَيَجِدُ مِنَ الْمُتَمَلِّقِينَ حَوْلَهُ كَثِيرًا، أَمَّا أُخُوَّةُ صِدْقٍ فَلَنْ يَجِدَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، سَيَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُعَادِينَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ الْكَرَمَ وَلَا يَأْلَفُونَ إِلَّا صَاحِبَ الْكَرَمِ، وَأَقْلُ الْكَرَمِ أَنْ تَكُونَ كَرِيمًا بِأَخْلَاقِكَ وَمُعَامَلَتِكَ، وَأَعْلَى الْكَرَمِ أَنْ تَكُونَ كَرِيمًا بِعِلْمِكَ، فَإِذَا وُجِدَ الْكَرَمُ بِالْأَخْلَاقِ أَوْ بِالْعِلْمِ أَوْ بِالْمَالِ فَإِنَّ الشَّخْصَ يَكُونُ مُحِبًّا، أَمَّا إِنْ سَاءَتِ الْأَخْلَاقُ وَشَحَّتْ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي فَإِنَّ الشَّخْصَ يَجْنِي أَصْحَابًا غَيْرَ صَادِقِينَ. **وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ** وَجَاءَ عَنْ غَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا حِمَارَهُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. الْبُخْلُ يَجْلِبُ الْحَسَدَ وَالْأَعْدَاءَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْكَرَمُ مِنْ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَةُ؛ يُوَاسِي الْغَنِيَّ الْفَقِيرَ، وَالْفَقِيرُ عِنْدَيْهِ يَشْعُرُ بِفَضْلِ الْغَنِيِّ عَلَيْهِ فَيُحِبُّهُ وَيَدْعُو لَهُ وَيَشْكُرُهُ فَيُصْبِحُ الْمُجْتَمَعُ مُتَالِفًا مُتَمَاسِكًا، فَالْمُسْلِمُ يَكُونُ كَرِيمًا لِيَكْسِبَ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَدَّ إِخْوَانِهِ، ثُمَّ لِيَكْسِبَ وَدَّ الْإِخْوَانِ؛ فَإِنَّ الْحُبَّ فِي اللَّهِ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ إِنْ حَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، وَالْخِدْمَةِ فَلْيَكُنْ تَبَعًا لَا قَصْدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْمَالَ فَلْيُسْتَعْمِلْهُ فِي اكْتِسَابِ أَصْدِقَاءِ أَفْضَلٍ، فَالْمَالُ نِعْمَةٌ وَقَدْ يُوفَّرُ الْوَقْتُ وَالْجُهْدُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، فَنِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ.

١٦- مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالِ النَّاسِ قَاطِبَةً إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلنَّاسِ فَتَانُ

التعليق:

قوله: (جَادَ) مِنَ الْجُودِ وَهُوَ الْبَذْلُ وَالسَّخَاءُ وَالْكَرَمُ، (قَاطِبَةً) يَعْنِي: جَمِيعاً، وَفِي هَذَا مُبَالَغَةٌ. (فَتَانُ) كَثِيرُ الْفِتْنَةِ، بِمَعْنَى يُفْتَنُونَ بِهِ كَثِيراً، وَيُحِبُّونَهُ وَيَرْغَبُونَ فِيهِ بِشِدَّةٍ. وَهَذَا الْبَيْتُ يُعْتَبَرُ تِمَمَةً لِلْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الْجُودُ وَالْكَرَمُ وَالسَّخَاءُ بِمَعْنَى مُتَقَارِبٍ، وَهِيَ صِفَاتٌ مَمْدُوحَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ؛ الْمُسْلِمَةِ وَالْكَافِرَةِ، السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ. وَالْجُودُ الْمَحْمُودُ شَرَعاً مَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ، وَفَعَلَهُ صَاحِبُهُ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائدة الثانية: مَنْ بَذَلَ الْمَالَ أَقْبَلَ غَالِبُ النَّاسِ عَلَيْهِ يَرْجُونَ مَصْلَحَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِعَامَّةِ النَّاسِ فِي مِثْلِهِمْ لِلدُّنْيَا، الْعِبْرَةُ بِالْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَالسَّدَادِ. وَهَذَا الْبَيْتُ كَالْبَيْتِ الْآخَرِ الَّذِي قَالَ صَاحِبُهُ فِيهِ:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ
وَقِيلَ: رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ
وَمَا أَشَبَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

الفائدة الثالثة: طَالِبُ الْعِلْمِ لَا يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْمَالِ وَيَجْرِيَ وَرَاءَهُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، بَلْ يَثْبُتُ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَفَافِ؛ فَإِنَّ الْمَالَ جَرَّ كَثِيرٌ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ إِلَى الْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الْجُرْجَانِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِعِزَّةِ النَّفْسِ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذَا الْجَانِبِ، قَالَ:
 وَأَنْتِي لَرَاضٍ عَنْ فَتَى مُتَعَفِّفٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمًا
 يَبِيتُ يَرَاعِي النُّجْمَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ وَيُصْبِحُ طَلَقًا ضَاحِكًا مَتَبَسِّمًا
 وَلَا يَسْأَلُ الْمُثْرَيْنَ مَا بِأَكْفِهِمْ وَلَوْ مَاتَ جُوعًا عَفَّةً وَتَكْرُمًا



١٧- مَنْ سَأَلَ النَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ وَعَاشَ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذَلَانُ

التعليق:

قوله: (غَوَائِلِهِمْ) أي: شُرُورِهِمْ وَمَكْرَهُمْ، (قَرِيرُ الْعَيْنِ) كِنَايَةٌ عَنِ السَّعَادَةِ، (جَذَلَانُ) فَرَحَانُ وَسَعِيدٌ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الصَّبْرُ عَلَى أَخْطَاءِ الْآخَرِينَ وَدَفْعُهَا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ سَبَبٍ لِكُفِّ شَرِّهِمْ، وَهُوَ أَيْسَرُ وَأَسْرَعُ ثَمَرَةً مِنَ الْإِنْتِقَامِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونُ حَظِّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤، ٣٥]، وَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، أَي: يَزِرُّ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ فِي الْكَلِمَاتِ الشَّدِيدَةِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الْعَنِيفَةِ.

الفائدة الثانية: مُسَالَمَةُ النَّاسِ تَكُونُ بِالْمُدَارَاةِ لَا بِالْمُدَاهَنَةِ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟

الْمُدَارَاةُ هِيَ: اتِّقَاءُ شَرِّ الْغَيْرِ بِالصَّبْرِ، وَبِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، بِالْإِحْتِيَالِ فِي دَفْعِ شَرِّهِ مِنْ غَيْرِ تَنَازُلٍ عَنِ الْحَقِّ أَوْ مَوَافَقَةٍ فِي الْبَاطِلِ.

وَالْمُدَاهَنَةُ: إِظْهَارُ خِلَافٍ مَا يُبْطِنُ مِنَ الْحَقِّ.

وَقِيلَ: بِذَلِكَ الدِّينِ لِمَجَرَّدِ الدُّنْيَا. وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ.

وُخْلَاصَتُهَا: هِيَ مُوَافَقَةُ الْغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَهِيَ بِهَذَا تُعْتَبَرُ نَوْعًا مِنَ التَّفَاقُ وَالْجُبْنِ وَالْخَوَرِ، وَصَاحِبُهَا ذُو وَجْهَيْنِ.

وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مُدَارَاةِ النَّاسِ، وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُدَارِيَ أَهْلَ زَمَانِهِ

مُدَارَاةَ السَّابِقِ لِلْمَاءِ الْجَارِي.

وَالْمُدَارَاةُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا وَالٍ وَلَا تَاجِرٌ وَلَا رَبُّ أُسْرَةٍ وَلَا غَيْرُهُمْ، وَهِيَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْمُدَارَاةِ.

الفائدة الثالثة: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْمُسَالَمَةُ مِنْ غَيْرِ تَنَازُلٍ عَنِ الْحَقِّ سَبَبٌ لِلسَّعَادَةِ وَالْأَمْنِ، وَهَذَا لَا يُتَنَافَى الصَّدْعُ بِالْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ الصَّدْعَ بِالْحَقِّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ وَالرُّعْبِ؛ وَلَيْسَ مُدَارَاةً. فَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْمُدَارَاةَ يَسْلَمَ غَالِبًا مِنْ غَوَائِلِ النَّاسِ وَشُرُورِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، إِلَى جَانِبِ مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ.



١٨- مَنْ كَانَ لِلْعَقْلِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ غَدَا وَمَا عَلَى نَفْسِهِ لِلْحِرْصِ سُلْطَانٌ

التعليق:

هَذَا أَيْضاً مُتَعَلِّقٌ بِالْبَيْتِ الَّذِي بَعْدَهُ، قَالَ:

(مَنْ مَدَّ طَرَفًا لِقَرْطِ الْجَهْلِ نَحَوَ هَوَىٰ أَعْصَىٰ عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزِيَانٌ).

قوله: (سُلْطَانٌ عَلَيْهِ) يَعْنِي: يَتَأَمَّلُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، يَجْعَلُ الْعَائِقَ الْعَقْلَ هُوَ الْحَكَمَ، وَلَا يُبَادِرُ إِلَى الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ بِغَيْرِ تَأَمُّلٍ وَتَفَكُّرٍ. (غَدَا) بِمَعْنَى أَصْبَحَ وَصَارَ. (لِلْحِرْصِ) الْحِرْصُ يُطْلَقُ غَالِبًا عَلَى الطَّمَعِ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ قَدَّمَ عَقْلَهُ عَلَى عَمَلِهِ وَقَوْلِهِ سَلِمَ مِنْ أَضْرَارٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الْحِرْصِ وَتَبَعَاتِ الْحِرْصِ؛ فَالْعَقْلُ ضِدُّ الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ، وَيَأْنِي أَيْضاً ضِدُّ الطَّمَعِ وَالْحِرْصِ. وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِاسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، لَوْ رَاجَعْتَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَوَجَدْتَ ذِكْرَ الْعَقْلِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ مَرَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْمُرَادُ بِالْعَقْلِ هُنَا الْعَقْلُ السَّلِيمُ، أَمَّا الْعُقُولُ الْمُنْكَوسَةُ فَلَا عِبْرَةَ بِهَا. وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ -وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: الْعَقْلُ الصَّرِيحُ- هُوَ الَّذِي يُوَافِقُ الشَّرْعَ الْحَكِيمَ وَالتَّصَرُّفَ الصَّحِيحَ، وَهُوَ تَابِعٌ لِلشَّرْعِ.

أَمَّا مَنْ قَدَّمَ الْعَقْلَ عَلَى الشَّرْعِ فَقَدْ ضَلَّ وَزَلَّ؛ وَخَالَفَ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، اتَّبِعْ وَلَا تَجْعَلِ الدِّينَ هُوَ التَّابِعَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ قَدَّمَ هَوَىٰ نَفْسِهِ عَلَى الْعَقْلِ غَلَبَتْهُ شَهْوَاتُهُ أَوْ شُبُهَاتُهُ، إِذَا قَدَّمَ الشَّهْوَةَ ابْتُلِيَ بِالْحِرْصِ وَالطَّمَعِ وَرَبَّمَا مُعَاقَرَةُ الْمُحَرَّمَاتِ وَسُوءُ التَّصَرُّفِ، وَمَنْ قَدَّمَ الْعَقْلَ عَلَى الشُّبُهَاتِ ابْتُلِيَ بِالْبُدْعَةِ وَرَبَّمَا بِالشَّرِّكَ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكُفَّارِ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، أَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْحَالِ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ، صَارُوا أَرَى مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالسَّبَبُ؟ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوا عُقُولَهُمْ بِالطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ.



١٩- مَنْ مَدَّ طَرْفًا لِفَرْطِ الْجَهْلِ نَحْوَهُوَّى أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزْيَانُ

التعليق:

(طَرْفًا) عَيْنَ الْبَصَرِ وَعَيْنَ الْقَلْبِ. (لِفَرْطِ الْجَهْلِ) لِكثْرَةِ جَهْلِهِ. (هُوَّى) اهُوَّى: هُوَ الْمُخَالَفَاتُ عُمُومًا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الشَّهَوَاتِ خُصُوصًا، أَوْ عَلَى الْبِدْعِ. (أَغْضَى) مِنْ غَضَّ بِمَعْنَى عَمِيَ وَخَفِيَ عَلَيْهِ. (خَزْيَانُ) مِنَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ وَالذُّلِّ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: تَطَاوُلُ الْعَيْنِ وَالْأَمَلِ إِلَى الْمُخَالَفَاتِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَشُبُهَاتٍ نَاتِجٌ عَنْ مَادَا؟ عَنْ تَسَلُّطِ الْجَهْلِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى الْعَقْلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى وَهُوَ يَدْعُ قَوْمَهُ حِينَ طَلَبُوا إِلَهًا مِنَ الْأَصْنَامِ، قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]؛ لِأَنَّهَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشُّبُهَةُ. وَقَالَ فِي قَوْمٍ لَوْ طِ حِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّهْوَةُ: ﴿أَتُنْكُمُ اللَّاتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

الفائدة الثانية: مِنْ ثَمَارِ الْجَهْلِ وَالتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ وَالْمَحْرَمَاتِ عَدَمُ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، وَتَثَاوُلُ الطَّاعَةِ، وَاسْتِصْعَابُ التَّوْبَةِ؛ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ عَجَزَ وَرَجَعَ فِي الذَّنْبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الفائدة الثالثة: نِهَايَةُ الْجَهْلِ بِالْحَقِّ وَالتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ هُوَ الْخِزْيُ وَالذُّلُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، (أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزْيَانُ). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَهْلِ الشَّرِّ: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]. وَقَالَ نَبِيُّنَا ﷺ فِي الْمَعْصِيَةِ: «إِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ أَيْضًا فِي مَعْصِيَةِ أُخْرَى وَهِيَ الْوِلَايَةُ بِظُلْمٍ (وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ)، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ.

٢٠- مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمْ نَصَبًا لِأَنَّ سُوسَهُمْ بَغْيٌ وَعِدْوَانٌ

التعليق:

(عَاشَرَ) أَي: خَالَطَ النَّاسَ عَامَلَهُمْ، بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُعَامَلَةِ. (نَصَبًا) تَعَبًا وَعِدْوَانًا. (نَصَبًا) السُّوسُ مَعْنَاهُ الطَّبَعُ وَالْأَصْلُ، طِبَاعُهُمْ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ. (بَغْيٌ) تَعَدُّ وَظُلْمٌ. (وَعِدْوَانٌ) مِنَ الْمُعَادَاةِ لِمَنْ خَالَفَهُمْ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: النَّاسُ طُبِعُوا عَلَى النَّقْصِ فِي الْعَالِبِ فَرُبَّمَا تَجِدُ الْكَثِيرَ فِي طِبَاعِهِمْ لَوْمْ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ عَدَاوَةٌ أَوْ نُكْرَانٌ لِلْجَمِيلِ، تَجِدُ هَذَا كَثِيرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ظُلُومٌ: كَثِيرُ الظُّلْمِ، وَجَهُولٌ: كَثِيرُ الْجَهْلِ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: فَهَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِ وَنَفْسِهِ، وَخُرُوجُهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَكُونُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

يَعْنِي: هَذِهِ الصِّفَاتُ مَوْجُودَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، يُخْلَقُ وَهُوَ جَاهِلٌ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا لَا فِي دِينِهِ وَلَا دُنْيَاهُ، وَمِنْ طِفْلُوتهِ تَجِدُ أَنَّهُ يُحِبُّ الظُّلْمَ لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْخُصُومَاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ خَالَطَ النَّاسَ فَلْيُوطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحِبُّ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ ابْنِ مَاجَهَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ» حَسَنَةُ الْأَلْبَانِيِّ. وَفِي حَدِيثِ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بَلَفَظَ: «خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

فَهُوَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ أَجْرًا، فَالْمُسْلِمُ يُوطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ فَيُوجِرُ عَلَى الصَّبْرِ، وَيُوجِرُ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ رَدِّ الْأَذَى بِمِثْلِهِ.

الفائدة الثالثة: اعتزال الناس في غير الواجبات والمستحبات مرغَّب فيه في كثير من الأزمان والأماكن؛ لأنَّ كثرة المخالطة تُورث المرأة من الآخرين؛ لا سيَّما عند الفتن. واعتزال أهل الشر والفتن واجبٌ إلا لأمرٍ بمعروفٍ أو منهيٍّ عن مُنكرٍ، قال حذيفة في ذكر الفرقِ إلى أن قال له النبي ﷺ: «فاعتزل تلك الفرق كلها» رواه البخاري ومسلم.

حين يكون الذين حولك كلُّهم على باطلٍ اترك الجميع. وفي حديث أبي صصعة عن أبي سعيد رضي الله عنه النبي ﷺ قال: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن) رواه البخاري.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا أُنبئكم بخير الناس؟» ثم ذكر المجاهد ثم قال الذي بعده: «وأمرؤ مُعتزل في شعبٍ يُقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس»، هذا لفظ ابن حبان من حديث ابن عباس وأصله في الصحيحين، فالإنسان لن يجد من هو سالمٌ من كل الجهات كما سيأتي في البيت الذي بعده.



٢١- وَمَنْ يُفْتِشْ عَنِ الْإِخْوَانِ يَقْلَهُمْ فُجْلُ إِيَّاهُ هَذَا الْعَصْرُ خَوَانٌ

التعليق:

(يُفْتِشُ) بِمَعْنَى يُدَقِّقُ أَوْ يَبْحَثُ أَوْ يَفْحَصُ يُرِيدُ أَخًا. (يَقْلَهُمْ) بِمَعْنَى يُبْغِضُهُمْ. (فُجْلُ) كَثِيرٌ. (خَوَانٌ) مُتَّصِفٌ بِالْخِيَانَةِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ صَاحِبًا فَلْيَخْتَرْ صَاحِبَ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ، وَلْيَتَحَرَّ قَدَرِ الْمُسْتَطَاعِ؛ فَذَلِكَ مِنَ الْوَقَايَةِ قَبْلَ النَّدَامَةِ، الْوَقَايَةُ خَيْرٌ مِنَ الْعِلَاجِ. تَحَرَّ أَصْحَابَكَ قَبْلَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ طَرِيقَةِ لِفْزَارِقِهِمْ، رَبُّمَا تَخْتَارُ أَصْحَابًا سَيِّئِينَ ثُمَّ بَعْدَهَا تَسْتَكِي أَوْ تَبْحَثُ عَنْ طَرِيقَةِ لِفْزَارِقِهِمْ! وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُجَالِلُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. «فَلْيَنْظُرْ» أَيُّ: لِيَسْتَحَرَّ مَنْ هُوَ الَّذِي يَجْلِسُ مَعَهُ وَيُصَاحِبُهُ حَتَّى لَا يَتَأَثَّرَ بِرَجُلٍ فَاسِدٍ وَيُجَدِّعَ فِي دِينِهِ وَيَضِلَّ؛ لِأَنَّ الْأَكْثَرِيَّةَ فِيهِمْ خَلَلٌ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ لِلْبَيْتِ (وَمَنْ يُفْتِشْ عَنِ الْإِخْوَانِ)، يَعْنِي يَبْحَثُ عَنْ أَصْدِقَاءٍ جُدُدٍ لِيَكُونُوا إِخْوَةً لَهُ فَلْيَتَحَرَّ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي خَائِنٍ.

الفائدة الثانية: مَنْ كَانَ لَدَيْهِ إِخْوَةٌ فَلَا يُدَقِّقُ فِي أَخْطَائِهِمْ، بَحَثَتْ وَوَجَدَتْ إِخْوَةً لَا تَبْقَى تُدَقِّقُ فِي أَخْطَائِهِمْ وَتُعَاتِبُ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ؛ فَذَلِكَ يَصِلُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَى بُغْضِهِمْ لَكَ أَوْ بُغْضِكَ لَهُمْ، وَرَبُّمَا تَبْقَى بِلَا صَاحِبٍ، بَلِ اصْبِرْ وَغَضِّ الطَّرْفَ كَثِيرًا، وَأَنْصَحْ أَخِيَانًا، وَعَاتِبْ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، «خُذِ الْعَفْوَ»: خُذْ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ مَا تَيْسَّرَ وَغَضِّ الطَّرْفَ عَنِ الْبَاقِي، وَهَذَا كُلُّهُ مَا لَمْ يَكُنْ حَرَامًا. وَهَذَا الْبَيْتُ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

تَعَاوَلْ عَنِ الْإِخْوَانِ فِي كُلِّ زَلَّةٍ وَإِيَّاكَ وَالتَّبَصِيرِ فِي زَلَّةِ الْأَخِ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كَثُرَةُ النِّقْصِ وَالضَّعْفِ فِي الْإِخْوَةِ وَالْأَصْحَابِ لَا تَمْنَعُ النَّصِيحَ بِرَفَقٍ وَلَيْنٍ، وَالْمُخَالَطَةَ وَالْأَخْذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْأَفْضَلِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَرَحِيمٌ يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ عِبَادَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَ الرَّحْمَةَ أَنْ تَنْتَشِلَ أَصْحَابُ الْمَعَاصِي إِلَى الطَّاعَةِ، وَأَنْ تَأْخُذَ بِمَنْ عِنْدَهُ عَجْزٌ وَتَشَدُّ مِنْ أَرْزِهِ، وَأَنْ تَسْتُرَ إِذَا رَأَيْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَخْطَاءِ، اسْتُرْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي سِتْرِهِ ضَرَرٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَخُذْ بِيَدِهِ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ.

٢٢- من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر برهان

التعليق:

(استشار) بمعنى جرب، جربت تجارب كثيرة. (صروف الدهر) حوادثه، بمعنى اعتبر بها حدث وسبق وجربه أو جربه غيره. (طبع الدهر برهان) ما قدره الله سبحانه وتعالى كونا من كون الدنيا دار ابتلاء فلا يسلم أحد. (برهان) حجة ودليل على عدم الإغترار به. ثمانية لا بُدَّ منها على الفتى ولا بُدَّ أن تجري عليه الثمانية سرور وبؤس واجتماع وفرقة وعسر ويسر وسقم وعافية

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: من نظر في حوادث الزمان التي جرت له أو لغيره نظر اعتباري، نظر تفكر واستفاد من تجاربه التي سبقت، علم أن الدنيا لا تكمل لأحد، وهذا يحثه من جهة على الصبر، ومن جهة أخرى على العمل للأخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. فالمؤمن لا يفرح أن يبقى في هذا السجن بل يعمل لخروجه منه على أحسن حال. وأيضاً في الحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حفت الجنة بالمكاره» رواه مسلم.

فالدنيا من جهة دار ابتلاء، ومن جهة أخرى أيضاً عندك زمام الشرع ينبغي أن تتقيد به، واعتبر ماذا حصل لمن خالفوا وصلُّوا وانحرفوا؟

الفائدة الثانية: التجارب مفيدة لما فيها من عبرة وعظة وتنبيه، فمن لم يُفدّه تجارب الأيام لم ينتفع بها ضياعه، وقد قيل: "التجارب مرآة العواقب". وهذا كقول الصفيدي في لاميته:

من لم يُفدّه صُروف الدهر تجربةً فيما يُحاول فلينزع مع الحمل

وأحسن من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ [الأنعام: ١١]؛ سِيرُوا وَانْظُرُوا مَاذَا حَصَلَ لِمَنْ قَبْلَكُمْ.

الفائدة الثالثة: الدهر هو الزمان وهو الليل والنهار، والصُّرُوفُ واقعة حقيقة في هذا الزمان، وليس له تعلق في إحداثها أو إعدامها، بل ذلك كله بيد الله سبحانه، فهو الذي يقلب الليل والنهار، كما في الحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار» رواه البخاري ومسلم. فتصرف حوادث الدهر بيد الله سبحانه، وينبغي عدم نسبة هذه الأشياء إلى الدهر، الشعراء دائماً عندهم الدهر الدهر يرددونه على ألسنتهم كثيراً، كأن الدهر يعني يفعل ويعطي ويمنع، وهذا خطأ.



٢٣- مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصِدْ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَةً وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَانٌ

التعليق:

(يَزْرَعُ) المرادُ هنا: يَعْمَلُ. (يَحْصِدُ) أي: يُجَارَى عَلَى عَمَلِهِ. (فِي عَوَاقِبِهِ) فِي وَقْتِ الْجَزَاءِ؛ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ. (إِبَانٌ) وَقْتُ مُحَدَّدٍ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مِنَ الْحِكْمِ الْمَشْهُورَةِ: «مَنْ زَرَعَ حَصَدَ»، وَ«مَنْ يَزْرَعِ الشُّوكَ لَا يَجْنِي الْعِنَبَ»، وَ«الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ»؛ فَازْرَعْ مَا تُحِبُّ أَنْ تَحْصِدَ، وَلَا يَغْتَرَّ الْمُسْلِمُ بِإِمَاهَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ.

الفائدة الثانية: الْجَزَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَى مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَأَنْتَ الَّذِي قَدَّمْتَ وَأَنْتَ الَّذِي تُجَارَى. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

الفائدة الثالثة: عَاقِبَةُ الشَّرِّ النَّدَامَةُ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ حِينَهَا، وَالَّذِي يَنْفَعُ هُوَ الْمُبَادَرَةُ لِلتَّوْبَةِ وَالتَّحَلُّلِ مِنَ الْمَظَالِمِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَفْجَأُكَ الْمَوْتُ أَوِ الْعَذَابُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا فَالْعَذَابُ وَاقِعٌ.

اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤ / سبأ: ٣٣]، وَقَوْلُهُ:

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ حَسْرَةٌ، مَدَامَةٌ، تَمَنٍّ،

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:

٩٩-١٠٠]. نَسَأَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ يُبَاعِدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الذُّنُوبِ

وَالْمَعَاصِي كَمَا بَاعَدَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

٢٤- مَنِ اسْتَنَامَ إِلَى النَّاشِرِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صَلٌّ وَثُعْبَانٌ

التعليق:

(استنّام) بِمَعْنَى طَلَبَ النَّوْمَ، وَالْمَرَادُ هُنَا الرُّكُونُ. اسْتَنَامَ إِلَى: أَيِ رَكْنٍ إِلَيْهِمْ، وَسَكَنَ إِلَيْهِمْ، وَاطْمَأَنَّ بِهِمْ، وَصَحِبَهُمْ عَنْ رَغْبَةٍ. (الناشر) جَمْعُ شَرِيرٍ، وَهُمْ الْمُؤْصِفُونَ بِالشَّرِّ، وَمَرَجَعُهُمْ إِلَى ثَلَاثَةٍ: الْمُشْرِكُ، وَالْمُبْتَدِعُ، وَالْفَاسِقُ الْمَجَاهِرُ بِفِسْقِهِ.

(صل وثُعبان) الصَّلُّ: الْحَيَّةُ الْقَاتِلَةُ بِسُمِّهَا الَّتِي سُمِّهَا شَدِيدٌ، وَالثُّعْبَانُ مَعْرُوفٌ.

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: مَنْ خَالَطَ الْفَاسِدِينَ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ شَرِّهِمْ وَضَرَّرَهُمْ عَلَيْهِ، فَهُمْ شَرٌّ مِنْ نَافِعِ الْكَيْرِ؛ الْوَارِدُ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... وَجَلِيسُ السَّوِّ كَنَافِخِ الْكَيْرِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنِنَةً»؛ إِمَّا أَنْ يُوقِعَكَ فِي الْمَعْصِيَةِ أَوْ الْبِدْعَةِ أَوْ الشَّرِّ، وَإِمَّا أَنْ يُسْمِعَكَ مَا تَكْرَهُ.

الفائدة الثانية: مَثَلُ مَنْ يُصَاحِبُ الْأَشْرَارَ كَمَنْ يَنَامُ وَقَدْ وَضَعَ فِي لِحَافِهِ أَوْ فِي قَمِيصِهِ حَيَاتٍ وَثُعَابِينَ وَعَقَارِبَ. تَصَوَّرْ هَذَا الْمَوْقِفَ: أَنْ تَأْخُذَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْحَشَرَاتِ وَالزَّوَاحِفِ السَّامَةِ تَضَعُهَا فِي الْفِرَاشِ وَتَنَامُ بِجَوَارِهَا! فَإِنَّهُ لَنْ تَجِدَ الْأَمَانَ فِي مَرْقَدِكَ، وَلَنْ تَسْلَمْ أَيْضًا مِنْ لَدَغَتِهَا أَوْ نَهَشِهَا، وَرُبَّ نَهْشَةٍ لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا.

وَصَاحِبُ السَّوِّ قَدْ يَبُثُّ شَرَّهُ فَيُفْسِدُ قَلْبَكَ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى صَلَاحِهِ؛ فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ، فَالشُّبُهَةُ خَطَافَةٌ وَالْقُلُوبُ ضَعِيفَةٌ.

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ: عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ بِالِدَّجَالِ فَلْيَنَازِلْهُ، فَإِنَّ الدَّجَالَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ» رواه أبو داود وأحمد.

وَعِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ نَزَّوَجَ امْرَأَةً خَارِجِيَّةً لِيَرُدَّهَا إِلَى السُّنَّةِ فَأَعْوَتْهُ وَصَارَ خَارِجِيًّا!
 وَاَنْظُرْ إِلَى الَّذِينَ تَتَلَمَّذُوا عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ صَارُوا إِمَّا مُبْتَدِعَةً
 مُتَعَصِّبَةً، وَإِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِدْعِ مَا عِنْدَهُمْ.
 وَاَنْظُرْ إِلَى مَنْ يَقْبَلُ وَسَاوِسَ أَصْحَابِ الْمُخَدَّرَاتِ؛ يَبْدَأُ بِحَبِثَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ مُدْمِنًا.
 وَهَكَذَا مِنَ الْعَقَارِبِ السَّامَةِ الَّتِي لَدَغَتْ الْكَثِيرَ: هَذِهِ الْجَوَالَاتُ، لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ، وَرُبَّمَا
 يَفْتَحُ الْإِنْسَانُ هَاتِفَهُ فَيَفْتَحُ مَوْضِعًا دِينِيًّا فَتَأْتِي إِعْلَانَاتٌ سَيِّئَةٌ.
الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الرُّكُونُ وَالثَّقَّةُ بِأَهْلِ الشَّرِّ لَيْسَتْ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ، بَلْ هِيَ مِنَ السَّدَاجَةِ؛
 فَشَخْصٌ أَضَرَّ بِنَفْسِهِ هَلْ سَيَنْفَعُكَ؟ وَشَخْصٌ عَقَّ وَالِدِيهِ هَلْ سَيَبْرُّ بِكَ؟ شَخْصٌ خَانَ قَرِيبَهُ
 أَوْ صَدِيقَهُ هَلْ سَيُوفِي مَعَكَ؟ فَالسَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ.

٢٥- كُنْ رَيْقَ الْبَشَرِ إِنَّ الْحُرَّ هَمَّتْهُ صَحِيفَةٌ وَعَلَيْهَا الْبَشَرُ عُنْوَانُ

التعليق:

(رَيْقُ الْبَشَرِ) «رَيْقٌ» بالتخفيف والتشديد؛ بِمَعْنَى: أَفْضَلَ وَأَحْسَنَ، «الْبَشَرِ»: هِيَ الطَّلَاقَةُ. (الْحُرُّ) الْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا الْعَاقِلُ وَالْفَاضِلُ. (هَمَّتْهُ) أَي: رَغَبَتْهُ وَعَزِيَمَتْهُ، «صَحِيفَةٌ»: الْوَرَقَةُ الْبَيْضَاءُ، وَالْمُرَادُ: يَظْهَرُ عَلَى النَّاسِ وَوَجْهُهُ مُشْرِقٌ طَلَقَ، (عُنْوَانُ) يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ طَيْبِ نَفْسِهِ كَمَا يُعَبَّرُ عُنْوَانُ الْكِتَابِ عَمَّا فِيهِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الرَّجُلُ الْفَاضِلُ وَالْعَاقِلُ مَنْ يَلْقَى النَّاسَ وَهُوَ طَلَقَ الْوَجْهَ بَشُوشٌ غَيْرُ عَابِسٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ قِيلَ: طَلَاقَةُ الْوَجْهِ تَدُلُّ عَلَى سَلَامَةِ الصَّدْرِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ.

وَهَذَا يُعْتَبَرُ مِنَ الدِّينِ، وَمِنَ السُّنَّةِ؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ». الْإِبْتِسَامَةُ مِنْ غَيْرِ مُدَاهَنَةٍ حَسَنَةٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ.

الفائدة الثانية: كَتَمُ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ عَنِ الْآخَرِينَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْوِيَاءِ الْأَفْاضِلِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا صَدِيقُ الْأَمِّكَ تَحَزُّنُهُ، أَوْ عَدُوُّ الْأَمِّكَ تُفْرِحُهُ، (فَاكْتُمُ الْأَمْرَيْنِ فَقَرًّا وَغَنًى)؛ هَكَذَا يَقُولُ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُونُسَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، تَوَلَّى عَنْهُمْ لَا يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ حُزْنَهُ وَصَعْفَةً عَلَيْهِمْ. وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، تَوَلَّى وَشَكَّى إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَمْ يَشْكُ إِلَى الْخَلْقِ.

الفائدة الثالثة: الوجه العَبُوسُ بِغَيْرِ حَقٍّ مَذْمُومٌ شَرًّا وَعُرْفًا، وَالْعَبُوسَةُ مَطْرَدَةٌ لِلْسَّعَادَةِ،
 مَجْلَبَةٌ لِلْغَمِّ وَالْهَمِّ، وَفِيهَا أَيْضًا ضِيقُ الصَّدْرِ.
 وَخَيْرٌ عِلَاجٍ لَذَلِكَ هُوَ الرِّضَا بِالْقَدَرِ وَالتَّفَافُلُ.
 فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ،
 إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،
 وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».



٢٦- وَرَافِقُ الرَّفْقِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ فَلَمْ يَنْدَمْ رَفِيقٌ وَلَمْ يَذُمَّمَهُ إِنْسَانٌ

التعليق:

(وَرَافِقُ الرَّفْقِ) «رَافِقٌ» بِمَعْنَى: صَاحِبٌ، وَالْمَرَادُ: دَاوِمٌ عَلَى الرَّفْقِ.

وَالرَّفْقُ هُوَ: اللِّينُ وَالرَّحْمَةُ بِحَقٍّ وَالتَّثَبُّتُ.

وَضِدُّ الرَّفْقِ: الْعُنْفُ وَالشَّدَّةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَالطَّيْشُ وَالْعَجَلَةُ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الرَّفْقُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَخْلَاقِ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مُسْلِمٌ وَلَا مُسْلِمَةٌ، وَلِذَلِكَ قَالَتْ

عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا

يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»، وَهَكَذَا أَيْضًا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الْآخِرِ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»:

«إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

وَأَسْمَعُ لِحَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«مَنْ حُرِمَ الرَّفْقُ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظُّهُ

مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الْخَيْرِ». وَالرَّفْقُ رَأْسُ الْحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الشَّدَّةُ مِثْلُ الدَّوَاءِ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الْمَرَضِ الَّذِي لَا يُعَالِجُهُ الصَّبْرُ وَلَا

يُعَالِجُهُ الرَّفْقُ، فَهَنَّا نُسْتَعْمَلُ الشَّدَّةَ مَعَ أَمْنِ الْعَوَاقِبِ الضَّارَّةِ، وَالرَّفْقُ مِثْلُ الطَّبِيبِ يُؤْتِي إِلَيْهِ

بِالْمَرِيضِ قَدِ انْهَارَ أَوْ تَكَسَّرَ، فَلَا يَزَالُ يُعَالِجُهُ حَتَّى يَكُونَ قَوِيًّا سَوِيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الْكِبَرُ وَالْقَسْوَةُ وَاسْتِعْمَالُ الشَّدَّةِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا كَثِيرٌ مَا تَضُرُّ، يَكُونُ لَهَا
 أَضْرَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌّ، كَمْ تُفْسِدُ مِنْ أُسْرٍ! وَكَمْ تُمَزِّقُ مِنْ أَصْحَابٍ! وَكَمْ تَشُقُّ
 مِنْ جَمَاعَةٍ! وَعَاقِبَتُهَا نَدَمٌ، بِخِلَافِ الرَّفْقِ الصَّحِيحِ لَا يَعْقِبُهُ نَدَمٌ وَلَا يَذُمَّهُ أَحَدٌ بِحَقٍّ، وَقَدْ يَذَّمُّهُ
 بَعْضُ الْحَاقِدِينَ وَالْحَاسِدِينَ وَالطَّائِشِينَ، أَمَّا بِحَقٍّ فَلَا يُذَمُّ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.
 لَكِنْ إِذَا كَانَ الرَّفْقُ غَيْرَ صَحِيحٍ أَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَقَدْ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ غَيْرَ جَيِّدَةٍ، وَقَدْ يَذَّمُّهُ
 الْكَثَرُ.



٢٧- وَلَا يَغْرِتُكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ فَالْخَرَقُ هَدْمٌ وَرَفَقُ الْمَرْءِ بُنْيَانُ

التعليق:

«وَلَا يَغْرِتُكَ» أي: لَا يَخْدَعَنَّكَ. «وَالْحَقُّ» هُوَ: النَّصِيبُ مِنْ مَالٍ أَوْ غَيْرِهِ. «جَرَّهُ» أي: سَاقَهُ وَكَانَ سَبَبًا فِي وُجُودِهِ. (خَرَقٌ): خَرَقٌ بِالْفَتْحِ يَعْنِي: حِمَاقَةٌ، وَخَرَقٌ بِالضَّمِّ بِمَعْنَى: عُنْفٌ وَطَيْشٌ وَهُوَ ضِدُّ الرَّفْقِ.

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: حُصُولُ الْمَنْفَعَةِ أحيانًا مِنَ التَّصَرُّفِ الْخَطَا كَالشَّدَّةِ وَالْحَمَاقَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى مَدْحِهَا؛ فَقَدْ يَكُونُ ابْتِلَاءٌ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى قَدْ لَا يَدُومُ، وَهُنَاكَ يَعْنِي أَشْيَاءَ وَمَنَازِلَ تَحْدُثُ بِسَبَبِ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ مِنْ بَابِ الْإِبْتِلَاءِ.

قَدْ يَذْهَبُ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى قَرِيرٍ يَسْتَسْقِي فَيَنْزِلُ مَطَرٌ كَثِيرٌ، فَهَلْ يُقَالُ أَنَّ هَذَا أَنْ فَعَلَهُ صَحِيحًا؟ لَا، هُوَ مُشْرِكٌ.

فَلَا تَخْدَعْ إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي غَيْرِكَ فَتَجْرِي وَرَاءَ الْخَطَا وَتَهْدِمُ رَفْقَكَ وَأَخْلَاقَكَ.

الفائدة الثانية: التَّصَرُّفُ الْخَاطِئُ ذُو عَاقِبَةٍ سَيِّئَةٍ، مَثَلُهُ الْمُؤَلَّفُ كَالَّذِي يَبْنِي ثُمَّ يَهْدِمُ مَا بَنَاهُ، وَأَمَّا الرَّفْقُ فَهُوَ بُنْيَانٌ يَتَّبَعُهُ بُنْيَانٌ وَثَبَاتٌ، وَذَاتًا إِذَا ذُكِرَ الرَّفْقُ فَالْمُرَادُ بِالرَّفْقِ الصَّحِيحِ.

الفائدة الثالثة: المِئْوَعَةُ لَيْسَتْ مِنَ الرَّفْقِ كَمَا أَنَّ الْعُنْفَ لَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ؛ فَالرَّفْقُ: اللَّيْنُ فِي مَوْضِعِهِ، وَالْمِئْوَعَةُ: اللَّيْنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَتَنَازُلٌ عَنْ حَقٍّ.

وَالْحَزْمُ: الشَّدَّةُ فِي مَوْضِعِهَا مَعَ حُصُولِ الْمَنْفَعَةِ، وَالْعُنْفُ: شِدَّةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَتَجَاوُزٌ لِلْحَقِّ وَغُلُوٌّ. وَالْحَزْمُ: الْإِحْتِيَاظُ وَالشَّدَّةُ مَعَ الْحِكْمَةِ؛ بِخِلَافِ الْعُنْفِ فَإِنَّهُ شِدَّةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، شِدَّةٌ وَفِيهَا غُلُوٌّ، شِدَّةٌ مُخَالِفَةٌ لِلْحَقِّ.

٢٨- أَحْسِنُ إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدَرَةٌ فَلَنْ يَدُومَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِمْكَانٌ

التعليق:

هَذَا الْبَيْتُ يَنْبَغِي أَنْ يُحْفَظَ، وَهُوَ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

«إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَ فَاعْتَنِمَهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونًا».

وَقَوْلُهُ: (إِمْكَانٌ) فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ وَزَمَنٌ مُيسَّرٌ، فَرَبَّمَا تَذَهَبُ هَذِهِ الْفُرْصَةُ أَوْ تَنْعُدُمْ.

(وَمَقْدَرَةٌ) قُدْرَةٌ عَلَى الْفِعْلِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَحْسِنُ إِلَى نَفْسِكَ وَإِلَى غَيْرِكَ حِينَ تَتِمَّكُنْ مِنَ الْإِحْسَانِ، حِينَ يَتَيَسَّرُ لَكَ الْإِحْسَانُ لَا تُفَوِّتِ الْفُرْصَةَ، لَا تَذَهَبْ هَذِهِ الْفُرْصَةُ مِنْ يَدِكَ فَقَدْ لَا تَعُودُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»، اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ أَنْ تَذَهَبَ مِنْ يَدِكَ وَتَأْتِيَ مَكَانَهَا خَمْسٌ أُخْرَى، «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ»، الشَّبَابُ قُوَّةٌ وَنَشَاطٌ، الْهَرَمُ فِيهِ ضَعْفٌ وَنَقْصٌ وَقُصُورٌ.

«وَعِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»، أَنْفِقْ مِمَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ تَعَالَى رَبُّمَا تُبْتَلَى بِالْفَقْرِ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ. «وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»، الْحَيَاةُ مَزْرَعَةٌ فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنِ الْعَمَلِ. «وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ»، الصَّحَّةُ وَالْقُوَّةُ يَتَيَسَّرُ فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ مَعَ الْمَرَضِ. «وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ»، إِنْ وَجَدْتَ فُرْصَةً بَادِرْ إِلَى الْعَمَلِ.

اغْتَنِمْ شَبَابَكَ فِيهِ فَرَاغٌ لَا يُوجَدُ هَذَا الْفَرَاغُ فِي الْكُهُولَةِ غَالِبًا، اغْتَنِمِ الْعُطْلَ، اغْتَنِمَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، اغْتَنِمِ الْفَرَاغَ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَلَوْ كُنْتَ مَاشِيًا عَلَى الطَّرِيقِ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِالْمَرَاجَعَةِ وَبِسَمَاعِ الْخَيْرِ وَهَكَذَا.

اغْتَنِمِ بَرَّ الْوَالِدَيْنِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ، اغْتَنِمِ وُجُودَ الْعُلَمَاءِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ أَوْ انْتِقَالِهِمْ، اغْتَنِمِ الْأَمْنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْخَوْفُ...

الفائدة الثانية: مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابُ خَيْرٍ فَلْيَسْتَكْثِرْ مِنْهُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ تَنْشَطُ فِي بَعْضِ الْأَبْوَابِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ، فَلْيُكْثِرْ وَيَعْتَزِمِ النَّشَاطَ وَالْقُدْرَةَ فِي النَّفْعِ وَالْخَيْرِ.
مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابُ الْعِلْمِ فَلْيَسْتَكْثِرْ وَيُبَالِغْ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، شَخْصٌ آخَرُ فُتِحَ لَهُ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ يَجِدُ النَّشَاطَ وَالرَّغْبَةَ وَالْإِنْدِفَاعَ فَلْيَسْتَكْثِرْ صَلَاةً صِيَامًا عِبَادَاتٍ ذِكْرًا وَهَكَذَا، وَآخَرُ فُتِحَ لَهُ فِي بَابِ النَّفَقَةِ، وَآخَرُ فِي بَابِ الْجِهَادِ...

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلَاحِظُ ذَلِكَ فِي أَصْحَابِهِ فَيَسْجَعُهُمْ كُلًّا بِحَسَبِ نَشَاطِهِ.
حَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ كَانَ شُجَاعًا بَطَلًا سِيَاسِيًّا مُحَنِّكًَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَأَنْصُرْهُ»، وَرَأَى عَلَى أَبِي أُمَامَةَ إِفْتَالًا عَلَى الْعِبَادَةِ فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ»، وَرَأَى عَلَى ابْنِ عُمَرَ حُبًّا لِلصَّلَاةِ فَقَالَ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ»، فَكَانَ لَا يَتْرُكُ الْقِيَامَ أَبَدًا، وَرَأَى عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ الرَّغْبَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَالَ: «إِنَّكَ عُלِيمٌ مُعَلِّمٌ»، وَرَأَى فِي عُمَرَ شِدَّةً فِي الْحَقِّ وَشُجَاعَةً فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفْرُ مِنْكَ يَا عُمَرُ». إِلَى آخِرِهِ، الْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ.

الفائدة الثالثة: الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنْكَ الْخَيْرُ فَلَا تَقِفْ بَلْ تَوَجَّهْ إِلَى غَيْرِهِ،
انْقَطَعَ عَنْكَ خَيْرٌ مُعَيَّنٌ انْتَقِلْ إِلَى غَيْرِهِ إِمَّا لِأَنَّهُ انْتَهَى كَشَخْصٍ فَرَعَ مِنَ الْحَجِّ فَلْيُقْبَلْ عَلَى الطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ وَاعْتِنَامِ وَجُودِهِ فِي الْحَرَمِ مَثَلًا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨].

لَا تَتَّحِجْ إِلَى الْبَاطِلِ حِينَ يَنْقَطِعُ عَنْكَ الْخَيْرُ بِغَيْرِ رِضَاكَ أَوْ تَنْتَهِي مِنَ الْقِيَامِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْجَيِّدِ وَالْكَامِلِ لَا تَضَعْفُ.

فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةً»، أَيْ: نَشَاطٌ قُوَّةٌ، «وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ».

وَيَاكَ أَنْ تُقَدِّمَ الْإِسْتِقَالََةَ الصَّامِتَةَ فِي الدَّعْوَةِ أَوْ فِي الْعِبَادَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ.
بَعْضُ الدَّعَاةِ يَقُومُ وَيَدْعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمَا شَاءَ اللَّهُ، عِنْدَهُ نَشَاطُ النَّاسِ يَسْتَقْبِلُونَهُ وَيُعْتَبِرُ
عَلَى خَيْرٍ كَمَا يُقَالُ، لَكِنْ رُبَّمَا رَأَى مِنْ بَعْضِ النَّاسِ شَيْئًا مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ حَالٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ،
وَحَصَلَ لَهُ بَعْضُ الْأُمُورِ فَيَبْدَأُ يَتَرَجَعُ قَلِيلًا قَلِيلًا، لَا يَصْلُحُ هَذَا، سَتَاهَا بَعْضُهُمُ الْإِسْتِقَالََةَ
الصَّامِتَةَ، يَبْدَأُ بِالْإِنْسِحَابِ وَيَبْدَأُ يَفْقِدُ لَذَّةَ الْخَيْرِ الَّذِي كَانَ يُتَافَسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ نَقْصٌ
كَبِيرٌ.

وَفَقَّ اللَّهُ تَعَالَى الْجَمِيعَ.



٢٩- فالرَوْضُ يَزْدَانُ بِالنَّوَارِ فَاعِمَةٌ وَالْحُرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَزْدَانُ

التعليق:

وَهَذَا الْبَيْتُ شَبِيهٌ بِالتَّكْمِلَةِ لِلْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ، أَوْ زِيَادَةٌ تَوْضِيحٌ، فَشَجَّعَ عَلَى الْإِحْسَانِ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ.

(**فَالرَّوْضُ**) الْمَكَانُ الْمُتَمَلِّئُ بِالْعُشْبِ وَالشَّجَرِ. «**يَزْدَانُ**» بِمَعْنَى: يَتَزَيَّنُ وَيَصِيرُ جَمِيلًا. «**النَّوَارُ**»: جَمْعُ نَوْرٍ - أَوْ جَمْعُ نَوْرٍ - وَهُوَ الْأَزْهَارُ الْبَيْضَاءُ وَغَيْرُهَا. «**فَاعِمَةٌ**» يَعْنِي: مُنْفَتِحَةٌ، يَكُونُ الْمَنْظَرُ جَمِيلًا لَا سَيِّمًا عِنْدَ تَفَتْحِ الْأَزْهَارِ. «**وَالْحُرُّ**» يَعْنِي: الْحَيَّرُ. «**بِالْعَدْلِ**»: وَهُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ. «**الْإِحْسَانُ**»: بِذَلِكَ الْوَاجِبِ وَالْفَضْلِ. «**يَزْدَانُ**»: يَكُونُ جَمِيلًا طَيِّبًا سَعِيدًا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ قَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: جَمَالَ الطَّبِيعَةِ وَخَضَارُهَا وَزَهْرُهَا سَبَبٌ لِرَاحَةِ الْقَلْبِ وَسُكُونِ النَّفْسِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ؛ فَلَا بَأْسَ بِالتَّرْوِيحِ عَلَى النَّفْسِ أحيانًا بِالْجُلُوسِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مُحَالَفَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: جَمَالَ الْمُسْلِمِ فِي عَدْلِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ وَصِحَّةِ عَقِيدَتِهِ، فَمَتَى اخْتَلَتْ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ نَقَصَ فَضْلُهُ وَخَيْرُهُ بِقَدْرِهَا.

وَاقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا بِالْعَدْلِ، وَالْعَدْلُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ فَوْقَ الرَّحْمَةِ، وَأَوْسَعُ مَعْنَى وَتَعَلَّقَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ أَمْثَالِ الدُّنْيَا فِي تَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِ بِالْخَيْرِ أَوْ بِالْآخِرَةِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ شَرْعِيَّةٌ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «تَذْكَرَةٌ» أَيُّ تَذَكُّرٍ بِنَارِ الْآخِرَةِ؛.

وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَذْهَبُ وَيَنْظُرُ إِلَى النَّارِ
لِيَعِظَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ.

وَقَدْ مَرَّ مِثْلُ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ بِالزَّرْعِ الَّذِي يَشْتَدُّ ثُمَّ يَبْسُ وَيَنْتَهِي، وَالْحَيَاةُ كَذَلِكَ تَشْتَدُّ وَتَقْوَى ثُمَّ
يَأْتِي الضَّعْفُ وَالْمَوْتُ.

مِثَالُ آخَرٍ: اخْتِبَارَاتُ الدَّرَاسَاتِ وَالشَّهَادَاتِ تُذَكِّرُ بِاخْتِبَارِ الْقَبْرِ وَبِنَشْرِ الصُّحُفِ، وَهَكَذَا
ظُلْمَةُ اللَّيْلِ تُذَكِّرُ بِظُلْمَةِ الْقَبْرِ، إِلَى آخِرِ مَا يُذَكِّرُ فِي هَذَا الْبَابِ.



٣٠- صُنْ حُرَّوَجْهَكَ لَا تَهْتِكْ غِلَالَتَهُ فَكُلْ حُرَّ لِحُرِّ الْوَجْهِ صَوَانٌ

التعليق:

(صُنْ) بِمَعْنَى الصِّيَانَةِ وَالْحِمَايَةِ. «حُرَّوَجْهَكَ» يَعْنِي: مَاءَ وَجْهِكَ وَكَرَامَتَهُ وَمَكَانَتَهُ. «وَلَا تَهْتِكْ» لَا تُزِلْ سِتَارَهُ الْجَمِيلَ وَتَحْرِقْهُ. «غِلَالَتَهُ» شِعَارُهُ وَسِتَارُهُ، لَا تَهْتِكِ السَّتَارَ الْجَمِيلَ لِيَبْدُوَ بَعْدَهُ شَيْئًا سَيِّئًا. «صَوَانٌ» شَدِيدُ الْحِفَاطِ عَلَى كَرَامَتِهِ وَمَكَانَتِهِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كَرَامَةُ الشَّخْصِ وَمُرُوءَتُهُ تَكُونُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: اجْتِنَابُ مَذَلَّةِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] الْآيَةِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. وَأَيْضًا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا عَصَوْا: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ [البقرة: ٦١]. وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ؛ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي». فَالْمَعَاصِي وَالْبِدْعُ وَالشُّرُكُ كُلُّهَا سَبَبٌ لِلذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: الْعِلْمُ النَّافِعُ رِفْعَةٌ وَكَرَامَةٌ وَنُورٌ فِي الْوَجْهِ، فَمَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ فَقَدْ حَرَصَ فَقَدْ حَرَصَ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالرَّفْعَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ»، «نَضَرَ» بِمَعْنَى: جَمَلَهُ وَحَسَنَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ، فَالْعِلْمُ كَرَامَةٌ وَالْجَهْلُ مَذَلَّةٌ وَمَضَرَّةٌ:

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مَرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

الأمر الثالث: بِمَا تُحْفَظُ بِهِ الْكَرَامَةُ وَالْمُرُوءَةُ: الْقَنَاعَةُ وَالْعَفَافُ، فَمَنْ قَنَعَ جَلَّ وَمَنْ طَمَعَ ذَلَّ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُعَرِّضَ لِلذُّلِّ فَرُمْ مَا حَوْتُهُ أَيْدِي الرِّجَالِ.
 الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعَ وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعَ
 فَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ ذَلًّا، وَقَدْ قِيلَ: «الطَّمَعُ ذُلٌّ».

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي «الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:
 «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ»، يَأْتِي ذَلِيلًا قَدْ
 ذَهَبَ مَاءُ وَجْهِهِ مِنَ الْحَجَلِ، وَقِيلَ: يُقْلَعُ لَحْمُهُ فَلَا يَبْقَى إِلَّا الْعَظْمُ.
 نَسَأَلَ اللَّهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

الفائدة الثانية: النَّاطِمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَدْعُوكَ لِلْحِفَاطِ عَلَى كَرَامَتِكَ وَمُرُوءَتِكَ وَمَاءِ وَجْهِكَ بِمَا
 تَقْدَمَ ذِكْرُهُ وَبِغَيْرِهِ؛ فَالْحُرُّ وَالْخَيْرُّ وَالرَّجُلُ الْكَرِيمُ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِالْمَهَانَةِ، الْمُؤْمِنُ لَا يَرْضَى
 لِنَفْسِهِ بِالْمَهَانَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَكْبَرَ الْإِهَانَةِ أَنْ تُوَافِقَ أَوْ تُقَدِّمَ عَلَى الْبَاطِلِ.
الفائدة الثالثة: الْأَخْلَاقُ الطَّيِّبَةُ وَالْحَسَنَةُ وَالْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ تَعَكِّسُ جَمَالًا فِي الْوَجْهِ وَنُورًا،
 وَتَجْعَلُ لِصَاحِبِهَا كَرَامَةً، وَلِذَلِكَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَا يَتَرَفَّعُ عَنْ
 سَفَاسِفِ الْأُمُورِ يَكُونُ حَقِيرًا فِي نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَقِيرًا عِنْدَ غَيْرِهِ.
 فَلْيَحْرِصِ الْإِنْسَانُ عَلَى كَرَامَتِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الدِّينِ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ جَاءَ بِالْحِفَاطِ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ.



٣١- فَإِنْ لَقِيتَ عَدُوًّا فَالْتَقِهِ أَبَدًا وَالْوَجْهَ بِالْبَشْرِ وَالْبَشْرَاقِ غَضَانُ

التعليق:

«عَدُوٌّ»: المقصود هنا خصمك ولو كان ظالماً، خصمك من المسلمين.

وقوله: «بِالْبَشْرِ»، البشْر: البشاشة وطلاقة الوجه.

«غَضَانُ» يعني: ظاهر البشر واضح، لا يكاد يعرف من حولك بما في نفسك بما تظهر من البشاشة.

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: وقوع الخصومات بين الناس أمر لا يكاد يسلم منه أحد، ولذلك لا تكثر من تضخيم ذلك، بل ليكن همك كيف تعالج ذلك بالطرق الصحيحة.

الفائدة الثانية: تعامل مع عدوك المسلم بالتالي:

الأول: تحكيم الكتاب والسنة بينكما؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

الثاني: بالصبر ودفع شره بعدم إظهار البغض، بحيث تظهر طلاقة الوجه حين تلقاه حتى يشعر أنك لا تحقد عليه وأنت لست متمكراً به، وهذا ليس من التدلل، بل هو موافق لقول الله جل وعلا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآيات، وقد تقدم هذا.

الفائدة الثالثة: من يتحلّى بالسماحة والصبر وطلاقة الوجه سواء كان هذا في التعامل مع الصديق أو العدو فهو من أهل الصبر والسعادة؛ فسلامة القلب راحة للبال. وقد قيل: «حسن البشر يدل على سلامة الصدر».

وَقِيلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا جَزَيْتَ الْغَدْرَ غَدْرًا فَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ عَلَى اللَّئِيمِ
إِذَا قَابَلْتَ السَّيِّئَةَ بِسَيِّئَةٍ فَأَيْنَ فَضْلُ الْكَرِيمِ؟
وَقِيلَ أَيْضًا:

وَأُظْهِرَ الْبُشْرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ كَأَنَّهُ قَدْ مَلَأَ قَلْبِي مَحَبَّاتٍ
وَقَدْ أَحْيَيْ عَدُوِّي حِينَ أَبْصَرُهُ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَفِي الْحِكْمَةِ: «الْبُشْرُ عُنْوَانُ الْكَرَمِ»، لَنْ تَخْسَرَ شَيْئًا بِالْبُشْرِ وَالْإِبْتِسَامَةِ، وَأَمَّا الْكَسْبُ فَسَتَكْسِبُ
خَيْرًا كَثِيرًا؛ «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ».



٣٢- دَعِ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا فَلَيْسَ يَسْعَدُ بِالْخَيْرَاتِ كَسْلَانُ

التعليق:

(التَّكَاسُلُ) الكَسْلُ: الإِهْمَالُ وَالتَّرَاخِي فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، أَوْ تَرْكُهُ مَعَ الْقُدْرَةِ.

(الْخَيْرَاتِ) الصَّالِحَاتِ. (يَسْعَدُ) يَحْصُلُ عَلَيْهَا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الكَسْلُ مَرَضٌ يَغْتَرِي الْقَلْبَ، يُؤَدِّي إِلَى ثِقَلِ الْبَدَنِ عَنِ الْعَمَلِ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ مِنْهُ

النَّبِيُّ ﷺ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُرَدُّ الْإِسْتِعَاذَةُ فِي أَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، كَمَا فِي

حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ.

وَجَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ اسْتَعَاذَ مِنَ الْكَسَلِ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ وَأَنْسٍ فِي الْبُحَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَزَيْدِ بْنِ

أَرْقَمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَعُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى خَطَرِ الْكَسَلِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْكَسْلُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ».

الفائدة الثانية: الْمُؤْمِنُ يَجْرُسُ عَلَى طَرْدِ الْكَسَلِ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَطِيعَ السَّبَاقَ فِي الْخَيْرَاتِ؛ قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، [المائدة: ٤٨، والبقرة: ١٤٨]، لَنْ تَكُونَ مُسَابِقًا وَأَنْتَ كَسْلَانُ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، فَالصَّالِحَاتُ لَا تُتَالُ بِالْكَسَلِ، بَلْ

بِالسَّبَاقِ وَالْمُنَافَسَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: مِنْ آثَارِ الْكَسَلِ: حِرْمَانُ الْعَمَلِ، أَوْ ضَعْفُهُ، أَوْ نَقْصُهُ، أَوْ عَدَمُ الْإِخْلَاصِ فِيهِ، وَتَثَاوُلُ الطَّاعَاتِ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا الْمُنَافِقِينَ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وَأَيْضاً مِنْ آثَارِ الْكَسَلِ: ضَعْفُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالِدَّعْوَةِ، أَوْ الْحِرْمَانُ. «أُطْلِبَ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ». **وَأَيْضاً مِنْ آثَارِهِ:** قِلَّةُ الدُّنْيَا وَالْفَقْرُ؛ كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ فَقِيرٍ بِسَبَبِ كَسَلِهِ عَنِ الْعَمَلِ. وَأَيْضاً إِذَا قَلَّ الْعِلْمُ وَالْمَالُ وَجِدَتْ الْمَذَلَّةُ وَالضَّعْفُ.

٣٣- لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَعْرِى مِنْ تَقَى وَنَهَى وَإِنْ أَظْلَمَتْهُ أَوْرَاقٌ وَأَغْصَانُ

التعليق:

(لَا ظِلَّ) يَعْنِي: لَا سَاوِرَ، وَلَا عِزَّ، وَلَا مَكَانَةً. (يَعْرِى) غَيْرُ مَسْتُوْرٍ؛ إِمَّا غَيْرُ مَسْتُوْرٍ حِسًّا، أَوْ غَيْرُ مَسْتُوْرٍ مَعْنَى. (تَقَى) التَّقَوَّى هِيَ: الْعَمَلُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، (وَنَهَى) (وَنَهَى) عَقْلٌ. «أَوْرَاقٌ وَأَغْصَانُ» فِي بَعْضِ النُّسخِ، وَأَظْطَهَا أَصَحَّ: «أَوْرَاقٌ وَأَفْنَانٌ»، وَالْأَفْنَانُ هِيَ الْأَغْصَانُ وَالْأَشْجَارُ وَالْبَسَائِطُ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الرَّاحَةُ وَالْعِزُّ وَالسِّرُّ الْحَقِيقِيُّ يَكُونُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فَالِإِصْفَاءُ بِالتَّقْوَى دَلِيلٌ عَلَى سَلَامَةِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ وَصَفَاءِ النَّفْسِ.

وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًّا

أَيُّ: لَا خَيْرَ فِي مَعْصِيَّتِهِ، فَمَنْ أَرَادَ الرَّاحَةَ وَالْعِزَّ وَالسِّرَّ فَعَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالطَّاعَةِ وَتَرْكِ مَا يَضَادُّهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ حُرِمَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى فَهُوَ عَارٍ عَنِ الْخَيْرِ، مَهْمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَاسِ الْجَمِيلِ، أَوِ الْمَسَاكِينِ الْفَخْمَةِ، وَالْمَالِ وَالْحَدَائِقِ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَسْتُرُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقَى تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيًّا

وَقَدْ قِيلَ: مَنْ حُرِمَ مِنَ التَّقَى وَالنَّهْيِ لَمْ يُعَدَّ مِنْ زُمرَةِ الْإِنْسَانِ.

فَهَذَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: «لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ»، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَيْسَ بِإِنْسَانٍ، هَكَذَا فَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ؛ فَتَنَى ظِلَّ الشَّخْصِ نَفَى لِدَاتِهِ، فَمَنْ حُرِمَ مِنَ التَّقَى وَالنَّهْيِ لَمْ يُعَدَّ فِي زُمرَةِ الْإِنْسَانِ، بَلْ هُوَ شَبِيهٌ بِالْحَيَوَانِ.

الفائدة الثالثة: كمال الإنسان في كمال دينه وعقله، وكلُّ شرٍّ ونقصٍ يأتي من نقصٍ أحدهما؛
فبنقص الدين تقع الشرَكِيَّاتُ والبِدْعُ والمعاصي كما تقدّم معنا في بيّت سابق.
وبنقص العقل يُحرّم العلم وتقع الفتنُ وحُرمانُ التَّوبَةِ، فالعاقِلُ سَرِيعُ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى، وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَتَّعِدُّ عَنِ الْفِتَنِ.



٣٤- وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَالَّتَهُ دَوْلَتُهُ وَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتَهُ أَعْوَانُ

التعليق:

(النَّاسُ) يَعْنِي عُمُومُ النَّاسِ أَوْ بَعْضُ النَّاسِ. (وَالَّتَهُ) صَادَقَتُهُ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.
(دَوْلَتُهُ) يَعْنِي: السُّلْطَانُ وَالْوَلَاةُ، وَقِيلَ دَوْلَتُهُ بِالضَّمِّ: مِنَ الدَّوْلِ؛ أَيِ: الْمَالُ وَالْجَاهُ، وَهَذَا أَقْرَبُ، وَكَلَامُ الْمَعْنَيْنِ صَحِيحٌ. (عَادَتَهُ) مِنَ الْعِدَاوَةِ، وَعَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي: افْتَقَرَّ أَوْ فَقَدَ جَاهَهُ.
وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَنْظُرُونَ بِالْفِكْرِ الدُّنْيَوِيِّ، مَنْ كَانَ لَهُ جَاهٌ أَوْ مَالٌ انْتَفُوا حَوْلَهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَتَى زَالَ ذَلِكَ عَنْهُ تَرَكَوهُ، وَرَبَّاهُ عَادُوهُ وَسَخِرُوا مِنْهُ؛ وَلِهَذَا الْعَاقِلُ لَا يَغْتَرُّ بِمَا يَمِيلُ النَّاسُ إِلَيْهِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلِيَحْرِضَ عَلَى الْاجْتِمَاعِ مَعَ مَنْ يَجْمَعُهُ بِهِمْ دِينٌ أَوْ أُخُوَّةٌ صَادِقَةٌ.
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَفْعَالُكَ تُوزَنُ بِالْحَقِّ لَا بِمُعَامَلَةِ النَّاسِ لَكَ؛ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْمِيزَانُ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَعَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالكَثَرَةِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وَأَمَّا الْكَثَرَةُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١، والأنعام: ٣٧]، ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، [يونس: ٣٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، [الإسراء: ٨٩، والفرقان: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، [يوسف: ١٠٦].

وَآيَاتٌ كَثِيرَةٌ بِهَذَا الْمَعْنَى، فَلَا تَنْظُرْ إِلَى الْكَثَرَةِ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْحَقِّ.

الفائدة الثالثة: مَنْ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ فَتِلْكَ نِعْمَةٌ، فَاَلْمُؤْمِنُ مَنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَمَنْ أَدْبَرَ النَّاسُ عَنْهُ بِحَقِّ فَتِلْكَ مَذَمَّةٌ، كَالْمُبْتَدِعِ يُهْجَرُ وَالْفَاسِقِ يُتْرَكُ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» متفق عليه.



٣٥- سَحْبَانٌ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بِاقِلٍ حَصِرٌ وَبَاقِلٌ فِي ثَرَاءِ الْمَالِ سَحْبَانٌ

التعليق:

هَذَا الْبَيْتُ كَأَنَّهُ تَوْضِيحٌ لِلْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ.

(سَحْبَانٌ) اسْمُ رَجُلٍ مِنْ وَائِلٍ، كَانَ لَسِنًا بَلِيغًا، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ، فَيُقَالُ: أَفْصَحُ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ، وَمِنْ شَعْرِ سَحْبَانَ قَوْلُهُ:

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ أَنَّنِي إِذَا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنِّي خَطِيبُهَا

(بَاقِلٌ) هُوَ اسْمُ رَجُلٍ مِنْ رِبِيعَةَ وَكَانَ عَيْبًا. (حَصِرٌ) يَعْنِي: فِيهِ عِيٌّ وَضَعْفٌ عَنِ الْكَلَامِ شَدِيدٍ. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا عِنْدَكَ مَالٌ فَانْتَ زَعِيمُ الْقَوْمِ، مَا عِنْدَكَ مَالٌ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ التَّعْبِيرِ، أَوْ قَلِيلَ النَّسَبِ، أَوْ لَيْسَ لَدَيْهِ صِفَاتُ كَثِيرَةٍ يُمَدِّحُ بِهَا، فَهُوَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ جَمِيلُ الْمَنْطِقِ عَالِي الْمَنْزِلَةِ؛ وَذَلِكَ الْفَصِيحُ أَوْ صَاحِبُ الصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ بَدُونِ مَالٍ هُوَ عِنْدَ النَّاسِ لَا يُحْسِنُ التَّعْبِيرَ، وَهَذَا لِأَنَّ مِيزَانَهُمُ الدُّنْيَا.

قَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

غَيْرُ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنِ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلُ
وَوَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلُّ

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَقَدْ تَلَقَّى الْغَنِيِّ لَهُ جَلَالٌ يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

وَقِيلَ أَيْضًا:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَقِيرَ يَهْجُرُ بَيْتَهُ وَأَنَّ الْغَنِيَّ يَهْدَى لَهُ وَيُزَارُ

وَرُبَّمَا يُعْضُونَ الطَّرْفَ عَنْ مَسَاوِيهِ أَوْ أَخْطَائِهِ، وَرُبَّمَا مَدَحُوهُ بِهَا، كَأَنَّهُ يُمَدِّحُ الظَّالِمَ بِالْقُوَّةِ.

الفائدة الثانية: المسلم لا يُبالي بكلام الناس عليه، بل يحب أن يثق بالله سبحانه وتعالى، ثم يُحسن الظن بنفسه، فمن كان سريع التأثر بالآخرين طالت حسرته وزاد حزنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

الفائدة الثالثة: الميزان الحقيقي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. لا تنظر إلى موازين الناس، بل عليك أن تنظر إلى الميزان الإلهي؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.



٣٦- لَا تُودِعِ السَّرَّ وَشَاءَ يَبُوحَ بِهِ فَهَارَعَى غَنَمًا فِي الدَّوِّ سِرْحَانُ

التعليق:

(السَّرُّ) ما يجب كُتْمُهُ. (وَشَاءَ) مَنْ يَنْشُرُهُ وَيُذِيعُهُ. (الدَّوُّ) المَفَارَةُ وَالْخَلَاءُ، كَالصَّحَرَاءِ وَالْأَمَاكِينِ الْخَالِيَةِ. (سِرْحَانُ) مِنْ أَسْمَاءِ الدُّنْبِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ قَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَثَلٌ مَنْ يُحَدِّثُ بِسَرِّهِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْتَمِنٍ عَلَيْهِ؛ كَمَنْ يَتْرُكُ غَنَمًا فِي مَكَانٍ بِهِ ذَنَابٌ مُفْتَرِسَةٌ، فَلَا الدُّنْبُ يَحْفَظُ الْغَنَمَ، وَلَا الْوَشَاءُ يَحْفَظُ السَّرَّ.

وَهَذَا كَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَإِذَا أَرَدْتَ نَجَاحًا أَوْ بُلُوعَ مَتًى فَانْكُتُمْ أُمُورَكَ عَنْ حَافٍ وَمُتَعَلٍّ

وَهَذَا يُوَافِقُ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ، عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى نَجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ».

وَقَدْ قِيلَ: صَدْرُكَ أَوْسَعُ لِسْرِكَ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ. وَقِيلَ: كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الشَّفَتَيْنِ شَاعَ.

وَقِيلَ أَيْضًا: انْفِرِدْ بِسِرِّكَ لَا تُودِعْهُ حَازِمًا فَيَزِلَّ وَلَا جَاهِلًا فَيُخُونَ. فَيَزِلُّ: يَنْطِقُ بِدُونِ قَصْدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: كَيْتَمَانُ السَّرِّ أَمَانَةٌ، إِنْ شَخْصَ أَسْرَ إِلَيْكَ شَيْئًا، احْتَاجَ أَنْ يُسَرَّ فِيهِ أَمَانَةٌ عِنْدَكَ لَا يَجُوزُ خِيَانَتُهَا، دُونَ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ التَفَّتْ فِيهِ أَمَانَةٌ»؛ يَعْنِي: يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ وَيَلْتَفِتُ مِنْ أَجْلِ لَا يَسْمَعُ كَلَامَهُ أَحَدًا، فَهَذِهِ أَمَانَةٌ لَا يَجُوزُ لِدَلِيلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَنْ يُفْشِيَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَالْأَسْرَارَ، بَلْ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ: «وَإِذَا أَوْثَمِنَ حَانَ»، خِلَافَ الْأَخْيَارِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْأَسْرَارَ. وَقَدْ قِيلَ: صُدُورُ الْأَحْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ، الْحُرُّ الطَّيِّبُ مَا يُفْشِي سِرَّكَ حَتَّى عِنْدَ الْخُصُومَةِ.

الفائدة الثالثة: السِّرِّيَّةُ فِي الدِّينِ دُونَ حُجَّةِ شَرْعِيَّةٍ وَلَا مَصْلَحَةٍ مُعْتَبَرَةٍ تُعْتَبَرُ ثُمَّةً، وَلِذَلِكَ صَحَّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَتَنَاجَوْنَ فِي دِينِهِمْ بِشَيْءٍ دُونَ الْعَامَّةِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ عَلَى تَأْسِيسِ ضَلَالَةٍ». وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ الْبِدْعِ، لَا سِيَّمَا هَؤُلَاءِ الْمُتَحَرِّينَ، السِّرِّيَّةُ؛ فَالسِّرِّيَّةُ غَالِبًا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الضَّلَالِ.



٣٧- لَا تَحْسَبِ النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ غَرَائِزُ لَسْتَ تُحْصِيهِنَّ أَلْوَانُ

التعليق:

(غَرَائِزُ) يَعْنِي: طِبَاعٌ وَعَادَاتٌ وَأَخْلَاقٌ، (أَلْوَانُ) يَعْنِي مُتَنَوِّعَةٌ وَمُخْتَلِفَةٌ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَى طِبَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، فِيهِمُ الطَّيِّبُ وَفِيهِمُ الْخَبِيثُ، فِيهِمُ الصَّادِقُ وَفِيهِمُ الْكَاذِبُ، فِيهِمُ الْقَوِيُّ وَفِيهِمُ الضَّعِيفُ، فِيهِمُ الذَّكِيُّ وَفِيهِمُ الْغَبِيُّ، ... عُدَّ مِنْ هَذَا مَا شِئْتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: تَغْيِيرُ هَذِهِ الطَّبَاعِ جُمْلَةً غَيْرُ مُمَكِّنٍ، لَكِنَّ الْمُهْمَّ هُوَ مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ، وَلِذَلِكَ نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

مَكَانٌ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ يَحْدُ ذَهَبًا، وَفِي بَعْضِهَا فِضَّةً، وَفِي بَعْضِهَا أَحْجَارًا لَا قِيمَةَ لَهَا، وَالنَّاسُ مَعَادِنُ مُخْتَلِفَةٌ، فَالْمُسْلِمُ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُجَاهِلُ التَّعَامُلَ مَعَ كُلِّ فِتْنَةٍ بِمَا يَنْتَاسِبُ مَعَهَا بِمَا لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ تَعَامَلَ مَعَ النَّاسِ عَلَى ضَوْءِ هَذَا سَلِمَ قَلْبُهُ وَدَامَ صَبْرُهُ؛ فَالتَّدْقِيقُ مُرْهَقٌ، وَالتَّغَاوُلُ الْمُسْتَمِرُّ يُوقِعُ فِي مَزَالِقٍ وَنَكَبَاتٍ.

فَالشَّخْصُ يَكُونُ وَسْطًا؛ لَا يُدَقِّقُ إِلَى الْأَخِيرِ فَيَتَعَبُ، وَلَا يَتَغَاوُلُ كُلِّيًّا فَيَهْلِكَ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى: الْعَفْوَ عَنِ الْمُخْطِئِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي تَقْطَعُكَ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِ. وَأَدْلَةٌ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ صَرَبَ مَثَلًا فِي الْبَيْتِ الْآتِي.

٣٨- مَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَاءٍ لَوَارِدِهِ نَعَمْ وَلَا كُلُّ نَبْتٍ فَهُوَ سَعْدَانُ

التعليق:

(صَدَاءٌ) مَاءٌ، وَ(سَعْدَانٌ) مَرْعَى نَافِعٌ لِلْإِبِلِ يُسَمَّنُهَا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: هَذَا الْبَيْتُ مِثَالٌ لِلْبَيْتِ السَّابِقِ، فَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ، فَمَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَاءٍ؛ يَعْنِي: لَيْسَ كُلُّ مَاءٍ فِي الْعُدُوبَةِ كَمَاءِ الْعَيْنِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا صَدَاءٌ، وَهَذَا مِثْلُ عَرَبِيٍّ: «مَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَاءٍ وَلَا كُلُّ مَرْعَى كَالسَّعْدَانِ»، فَالنَّاسُ لَا يَسْتَوُونَ.

الفائدة الثانية: مَا كُلُّ النَّاسِ أَهْلُ فَضْلٍ وَكَمَالٍ، بَلْ فِيهِمْ وَفِيهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا النَّاسُ كِابِلٌ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»؛ يَعْنِي: إِذَا جِئْتَ تَفْحَصُ النَّاسَ لَنْ تَجِدَ فِي الْمِائَةِ إِلَّا وَاحِدًا مِمَّنْ كَمَلَتْ فِيهِ الصِّفَاتُ، فَالْكَمَالُ عَزِيزٌ، وَالتَّعَامُلُ مَعَ النَّاسِ بِمَا يَلِيقُ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

الفائدة الثالثة: الْكَمَالُ وَالنَّقْصُ بِأَسْبَابٍ، فَمَنْ رَامَ الْكَمَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ الْأَسْبَابَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَاتٍ سَابِقَةٍ، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي.

٣٩- لَا تَخْدِشَنَّ بِمِطْلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ فَأَبْرِئْ خَدِشَهُ مِطْلًا وَلِيَّانَ

التعليق:

(تَخْدِشَنَّ) بِمَعْنَى تَجَرَّحَ وَتَشَوَّهَ. (مِطْلٌ) الْمِطْلُ هُنَا الْمَقْصُودُ بِهِ التَّأْخِيرُ. (عَارِفَةٌ) يَعْنِي الْمَعْرُوفَ، أَفْعَالُ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ. (الْبَرُّ) الْبَرُّ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَقْصُودٌ بِهِ الْإِحْسَانُ إِلَى الْآخِرِينَ. (لِيَّانُ) يَعْنِي الْمِطْلَ مَعَ الْمَكْرِ، أَوْ الْمِطْلَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: إِذَا وَعَدْتَ آخَرَ بِمَعْرُوفٍ تُقَدِّمُهُ لَهُ فَلَا تُؤَخِّرْهُ عَنْ وَقْتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُشَوِّهُ إِحْسَانَكَ وَيُكَدِّرُهُ، وَرُبَّمَا يَجْرَحُ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ. يَأْتِيكَ محتاجٌ: عِنْدَنَا مِثْلًا مَرَضٌ، نُرِيدُ مِنْكَ ١٠٠٠ رِيَالٍ سَلَفَةً، فَيَقُولُ: تَعَالَ فِي الْعَصْرِ، يَأْتِيهِ فِي الْعَصْرِ فَيَقُولُ: عَفْوًا، ازْجَعْ لِي فِي الْمَغْرِبِ أَوْ الْعِشَاءِ، وَيَبْقَى ذَاهِبًا آتِيًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، هَذَا يُشَوِّهُ فِعْلَ الْخَيْرِ.

الفائدة الثانية: عِنْدَ إِحْسَانِكَ إِلَى الْآخِرِينَ اجْتَنِبْ ثَلَاثَ أَشْيَاءَ:

الأمر الأول: التَّأْخِيرُ وَالتَّسْوِيفُ عَنِ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ، فَذَلِكَ نَقْصٌ وَعَيْبٌ، وَالاعْتِذَارُ الْجَمِيلُ أَوَّلَى مِنَ الْمِطْلِ الطَّوِيلِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ قَادِرًا اعْتَذِرْ اعْتِذَارًا جَمِيلًا، هَذَا أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَعِدَ وَلَا تَفِي. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا اسْتِنْبَاطًا بِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ ابْنِ مَاجَهَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»، فَأَعْطِ مَا يَتَوَجَّبُ إِعْطَاؤُهُ دُونَ تَأْخِيرٍ، وَيَدْخُلُ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الأمر الثاني: عَدَمُ الْمَنِّ وَالْأَدَى إِلَى مَنْ أَحْسَنْتَ، عَدَمُ الْمَنِّ وَالْأَدَى عَلَى مَنْ أَحْسَنْتَ عَلَيْهِ؛ يَعْنِي: لَا تَمَنَّ عَلَى مَنْ لَا تُؤْذِيهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، شَبَّهَ الْمَنَّ وَالْأَدَى بِالرِّيَاءِ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ فِي مُسْلِمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ ثَلَاثَةً، قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ»، ذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ: «الْمَنَانُ بِنَا أُعْطِيَ». أَنَا أُعْطِيتُ، أَنَا فَعَلْتُ.

الأمر الثالث: بذلها في غير وقتها أو لغير أهلها، تبذل الشيء في غير وقته، تصرفه في غير الوقت الذي يحتاج الناس، أو لغير أهله، فتصدق على غني، أو مثلاً تسعى في توظيف شخص ربما يضُرُّ الناس بوظيفته، فليحرص الشخص على أن يضع المعروف في موضعه. وَاقْرَأْ هَذَا الْحَدِيثَ فِي مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ...»، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «فَيَضَعُهَا فِي مَوْضِعِهَا إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ فَيَرَبِّيَهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ»، الشَّاهِدُ: «فَيَضَعُهَا فِي مَوْضِعِهَا».

الفائدة الثالثة: كمال الكرم بالمبادرة دون تأخير، وانظر إلى ما قاله الله جلَّ وعلا في إبراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة، قَالَ: ﴿فَمَا لَبَثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِئِدٍ﴾ [هود: ٦٩].



٤٠- لَا تَسْتَشِرْ غَيْرَ نَدْبٍ حَازِمٍ يَقْظُ قَدْ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارٌ وَإِعْلَانُ

التعليق:

(تَسْتَشِرُ) الاستشارة طَلَبُ رَأْيٍ الْآخَرِ فِي أَمْرٍ مَا. (نَدْبٍ) يَعْنِي خَفِيفَ الْحَاجَةِ، الشَّهْمُ الَّذِي لَا يُرِيدُ لَكَ إِلَّا الْخَيْرَ. (حَازِمٍ) مُتَّصِفٍ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ هُوَ: ضَبْطُ الْأُمُورِ وَالْأَخْذُ فِيهَا بِالثَّقَةِ وَالْإِحْتِيَاظِ لِلظَّفَرِ وَالنَّجَاحِ، وَبَذَلِ الْأَسْبَابِ بِحَدِيثِهِ؛ فَهَذَا الَّذِي هُوَ حَرِيصٌ عَلَى نَفْسِهِ سَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى حَرِيصًا عَلَى غَيْرِهِ، بِخِلَافِ الْمَفْرُطِ. (يَقْظُ) نَبِيهِ غَيْرُ مُغْفَلٍ وَلَا بَلِيدٍ، وَمِنْ النَّبَاهَةِ النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ مَنْ تُشَاوَرُهُ: أَنْ يَكُونَ شَهْمًا لَا يُرِيدُ لَكَ إِلَّا الْخَيْرَ، وَعَاقِلًا حَازِمًا فِي نَفْسِهِ؛ فَمَنْ فَرَطَ فِي نَفْسِهِ لَمْ يَنْفَعْ غَيْرُهُ، وَفَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ. وَأَنْ يَكُونَ يَقْظًا نَبِيهَا يَنْظُرُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَأَثَارِهَا، وَأَنْ يَكُونَ كَاتِمًا لِسِرِّكَ، نَاصِحًا لَكَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ فَإِذَا شَاوَرْتَهُ أَشَارَ عَلَيْكَ بِالْخَيْرِ وَالنُّصْحِ وَمَا يَرَى أَنَّهُ أَنْفَعُ لَكَ.

الفائدة الثانية: الاستشارة أَمْرٌ شَرْعِيٌّ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

[آل عمران: ١٥٩]، وَهِيَ مُسْتَحَبَّةٌ وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْهَا عَاقِلٌ.

وَقَدْ صَحَّ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: «الرَّجُلُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ، وَنِصْفُ رَجُلٍ، وَلَا شَيْءَ؛ أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَرَأْيٌ وَيَسْتَشِيرُ، وَنِصْفُ الرَّجُلِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَرَأْيٌ يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَسْتَشِيرُ، وَالَّذِي لَا شَيْءَ هُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا رَأْيٌ يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَسْتَشِيرُ».

يَعْنِي لَيْسَ ذَكِيًّا فُطِنًا فِي نَفْسِهِ وَلَا يَسْتَشِيرُ غَيْرَهُ، فَهَذَا لَا شَيْءَ.

وَقَالَ الْقَائِلُ:

الرَّأْيُ كَاللَّيْلِ مُسْوَدًّا جَوَانِبُهُ وَاللَّيْلُ لَا يَنْجِي إِلَّا بِاصْبَاحٍ
فَاضْمُمْ مَصَابِيحَ آرَاءِ الرِّجَالِ إِلَى مِصْبَاحِ رَأْيِكَ تَزْدَدُ ضَوْءَ مِصْبَاحٍ
حِينَ تُشَاوِرُ الْعَاقِلَ تَضُمُّ رَأْيَهُ إِلَى رَأْيِكَ، وَعَقْلُهُ إِلَى عَقْلِكَ، وَفَهْمُهُ إِلَى فَهْمِكَ، وَرُبَّمَا نَبَّهَكَ عَلَى
أَشْيَاءَ لَمْ تَتَّبِعْ لَهَا، فَاَلْمُسْلِمُ مِرَاةُ أَخِيهِ.

وَقَالَ آخَرُ:

شَاوِرْ أَخَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَاتِ
فَالْعَيْنُ تُبْصِرُ مَا دَنَا وَنَأَى وَلَا تَرَى نَفْسَهَا إِلَّا بِمِرَاةٍ
نَأَى: بِمَعْنَى بَعْدَ. وَكَانَ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَدَنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُرَدِّدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ فِي دُرُوسِهِ؛
فَالْعَيْنُ تُبْصِرُ إِلَى بَعِيدٍ لَكِنْ لَا تَرَى نَفْسَهَا، قَدْ يَكُونُ عِنْدَكَ عَيْبٌ أَوْ خَلَلٌ لَا تَتَّبِعُهُ لَهُ إِلَّا
بِالْمُشَاوَرَةِ.

الفائدة الثالثة: مِنْ فَوَائِدِ الْمُشَاوَرَةِ (تَقْوِيَةُ الْعَقْلِ وَتَأْلِيفُ الصَّدِيقِ)؛ فَمَنْ شَاوَرْتَهُ يَشْعُرُ أَنَّكَ
تَثِقُ بِهِ فَيَزِدُّكَ لَكَ أُلْفَةً وَحُبَّةً، (وَاتِّضَاحُ الصَّوَابِ وَكَثْرَتُهُ)؛ قَدْ يَكُونُ فِي عَقْلِكَ فِكْرَةٌ فَتَتَلَفَحُ
الْأَرَاءُ فَتَنْفَتِحُ سُبُلٌ كَثِيرَةٌ.

وَهَذَا جَاءَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «مَا شَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا هُدُوا لِأَرْشِدِ أُمُورِهِمْ». وَكَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُشَاوَرَ أَصْحَابَهُ، لَا سِيَّمَا فِي الْأُمُورِ الْمُهَمَّةِ.

٤١- فَلْتَدَايِرُ فُرْسَانٍ إِذَا رَكِبُوا فِيهَا أَبْرُوا كَمَا لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ

التعليق:

(فَلْتَدَايِرُ) التَّدَايِيرُ مَا تُسَيَّرُ بِهِ الْأُمُورُ وَتُسَاسُ. (أَبْرُوا) مِنَ الْإِبْرَارِ، وَهُوَ الْغَلْبَةُ وَالْعُلُوُّ وَالْفُوزُ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الشُّورَى لَهَا أَرْبَابُهَا كَمَعْنَى السِّيَاسَةِ، وَالتَّدَايِيرُ لَهُ أَهْلُهُ، ثُمَّ مَثَلُ ذَلِكَ بِفُرْسَانِ الْحَرْبِ. وَالْمُرَادُ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا؛ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ سَلَكَتَ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ، فَالشَّخْصُ الْمُؤَهَّلُ الَّذِي سَبَقَتْ أَوْصَافُهُ يَدُلُّكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الصَّوَابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: تَفَاضُلُ النَّاسِ فِي الْعَقْلِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ، سِوَاءٍ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ أَوْ مِنْ جِهَةِ الدُّنْيَا، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ، فَاسْتَفِدْ مِنْ كُلِّ شَخْصٍ فِيمَا يُحْسِنُ، وَهَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، اسْأَلْ مَنْ جَرَّبَ هَذَا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْدَأَ التَّجَرِبَةَ مِنَ الصَّغَرِ، فَإِنَّ مَنْ اسْتَفَادَ مِنْ تَجَارِبِ غَيْرِهِ كَانَ أَسْرَعَ انْطِلَاقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَدَلُ الْأَسْبَابِ مِنْ صِفَاتِ الْحَازِمِ؛ أَنْتَ عِنْدَكَ فَهْمٌ وَذِكَاءٌ وَحَزْمٌ، هَذَا لَا يَكْفِي، لَا بُدَّ أَنْ تَبْدُلَ الْأَسْبَابَ، لَكِنَّ اعْتِمَادَ الْقَلْبِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا كَانَتْ اسْتِشَارَةُ الْيَقِظِ وَإِسْنَادُ الْأُمُورِ وَالْقِيَادَةُ إِلَى الْفَارِسِ الشُّجَاعِ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ، فَجَمَعَ بَيْنَ السَّبَبِ وَالتَّوَكُّلِ.

وَنَأْمُلُ فِي آيَةِ الشُّورَى؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، هَذَا السَّبَبُ وَهُوَ الشُّورَى، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهَا التَّوَكُّلُ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَهَذَا اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ فَأَنْتَ ابْدُلِ الْأَسْبَابَ وَمِنْهَا الشُّورَى، لَكِنَّ يَحِبُّ أَنْ يَبْقَى قَلْبُكَ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٤٢- وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِبُ مَقْدَرَةٌ وَكُلُّ أَمْرٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَانٌ

التعليق:

(مَقْدَرَةٌ) يَعْنِي زَمَنٌ مَعْلُومٌ. وَ(حَدٌّ) هُوَ الْفَاصِلُ أَوِ الْعَلَامَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. (وَمِيزَانٌ) مَا يُوزَنُ بِهِ الْأَمْرُ نَفْعًا وَضَرًّا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: لِكُلِّ أَمْرٍ وَقْتُهُ الْمُنَاسِبُ سَوَاءً كَانَ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا، فَإِذَا فُعِلَ قَبْلَ الْوَقْتِ أَوْ بَعْدَهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ جَيِّدًا؛ فَاحْرِضْ عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ؛ وَعَلَى وَزْنِ الْأُمُورِ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَعْنِ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْعَاقِلُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَثَمَرَاتِهَا وَأَثَارِهَا، فَذَلِكَ أَدْعَى لِلصَّبْرِ وَفِعْلِ الشَّيْءِ فِي وَقْتِهِ الْمُنَاسِبِ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ دَمُّ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ؛ لِأَنَّ الْغُلُوَّ تَجَاوُزَ الْحَدِّ، وَالْجَفَاءَ تَقْصِيرٌ عَنِ الْمَطْلُوبِ، كِلَاهُمَا خِلَافَ الْمِيزَانِ الصَّحِيحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اخْتَرَنِي تَعَامُلِكَ مَعَ الْآخَرِينَ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، وَأَيْضًا اللَّفْظَ الْمُنَاسِبِ، وَالْأُسْلُوبَ الْمُنَاسِبِ، وَهَكَذَا، وَأَنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ.

وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ التَّعَامُلُ مَعَ الْآخَرِينَ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَهُمْ.

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَحَسَنَةُ الْأَلْبَانِيُّ، هَذَا مِنْ وَضْعِ الْأُمُورِ فِي مَوْضِعِهَا الْمُنَاسِبِ، وَهَذَا هُوَ الْمِيزَانُ النَّافِعُ.

٤٣- فَلَا تَكُنْ عَجَلًا بِالْأَمْرِ تَطْلُبُهُ فَلَيْسَ يُحْمَدُ قَبْلَ النُّجْحِ بُحْرَانُ

التعليق:

(بُحْرَانُ) هِيَ: مُقَاوَمَةُ الْبَدَنِ لِلْمَرَضِ، يَكُونُ الشَّخْصُ مَرِيضًا شَدِيدَ الْمَرَضِ فَجَاءَ يَتَحَسَّنُ، وَهَذَا أَشْبَهُ بِفَاصِلٍ فِي الْمَرَضِ ثُمَّ يَعُودُ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ، فَإِذَا اغْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِهَذَا الْفَاصِلِ وَبَدَأَ يَتَصَرَّفُ وَيُثْقِلُ عَلَى الْبَدَنِ عَادَ إِلَى الْمَرَضِ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ، فَلَا يُحْمَدُ إِلَّا اسْتِعْجَالُ فِي التَّعَافِي قَبْلَ ظُهُورِ آثَارِهِ الصَّحِيحَةِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ قَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْعَجَلَةُ طَلَبُ الْأَمْرِ قَبْلَ وَقْتِهِ الصَّحِيحِ، وَهِيَ مَذْمُومَةٌ شَرْعًا وَعَقْلًا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الْأَسْرَاءُ: ١١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٧]، وَجَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «التَّائِي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَالْعَجَلَةُ تُتَنَافَى فِي الْحِلْمِ وَالرَّزَانَةِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ اسْتَعْجَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ عَوقِبَ بِحَرَمَانِهِ، وَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ يَقْطِفُ الثَّمَرَ قَبْلَ نَضْجِهِ فَلَا يَجِدُ طَعْمَهَا إِلَّا حَامِضًا.

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا: الْعَجَلَةُ أُمُّ النَّدَامَاتِ، وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ: الْعَجَلَةُ أُخْتُ النَّدَامَاتِ.

وَقِيلَ أَيْضًا: إِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ. وَقِيلَ أَيْضًا: بِئْسَ الْمَرْكَبُ الْعَجَلَةُ.

فَلَا تَسْتَعْجِلْ، انْظُرْ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، انْظُرْ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الْحِلْمُ وَالتَّوَدُّعُ وَالصَّبْرُ مِنْ أَصُولِ النَّجَاحِ وَالْفَوْزِ، وَإِنَّمَا يُحْمَدُ الْإِسْرَاعُ فِي

الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا جَاءَ وَقْتُهُ وَعَلِمَتْ حُدُودُهُ وَمَشْرُوعِيَّتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ

مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آلْ عِمْرَانَ: ١٣٣]. وَهُنَاكَ قِصَصُ كَثِيرَةٍ فِيهَا عِظَاتٌ وَقَعَتْ بِسَبَبِ الْعَجَلَةِ.

٤٤- كَفَى مِنَ الْعَيْشِ مَا قَدْ سَدَّ مِنْ عَوَزٍ فَفِيهِ لِلْحُرِّ أَنْ حَقَّتْ غُنْيَانُ

التعليق:

(عَوَزٌ) الْعَوَزُ: الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ، وَفِي نُسَخَةٍ: «مِنْ رَمَقٍ» أَي: مَا مَنَعَ مِنَ الْمَوْتِ.
(غُنْيَانٌ) غُنْيَانٌ: يَعْنِي اسْتِغْنَاءَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ. وَفِي بَعْضِ النُّسخ: «قُنْيَانٌ». وَقُنْيَانٌ: أَي مَا يُدْخَرُ لِلْحَاجَةِ، بِمَعْنَى: يَكْفِيكَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ قَوَائِدَ:

الْقَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُ وَيُدْفَعُ صَرُورَتَهُ، وَاسْتَعْنَى بِهِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَيْرًا كَثِيرًا؛ فَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ زِيَادَةٌ فِي الْخَيْرِ إِنْ اسْتَعْمَلَهُ فِي الطَّاعَةِ وَاسْتَعْلَمَهُ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ يَكُونُ شَرًّا إِذَا كَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ الصَّوَابِ وَالْحَلَالِ وَأَنْفَقَهُ كَذَلِكَ أَوْ شَغَلَهُ عَنِ الطَّاعَةِ.

الْقَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْقَنَاعَةُ كُنْزٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَاتٍ سَابِقَةٍ، فَهِيَ رَاحَةُ الْحَاضِرِ وَكُنْزُ الْمُسْتَقْبَلِ.
وَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، لِأَنَّ الْكَفَافَ أَقْلٌ فِي زَمَنِ الْجَمْعِ - يَعْنِي تَحْصُلُ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ - وَكَذَلِكَ يَقِلُّ أَيْضًا الْحِسَابُ وَالْهَمُّ وَالْمَشَاكِلُ.
وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ فَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمَلِكِ؛ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنِ الْخَطْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

وَفِي قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [الْمَائِدَةُ: ٢٠]، صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لَهُ بَيْتٌ وَخَادِمٌ وَعِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ سُمِّيَ مَلِكًا»؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ أَصْبَحَ مُسْتَعْنِيًا عَنِ النَّاسِ كَالْمَلِكِ.

وجاء رجل إلى عبد الله بن عمرو وسأله فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: «ألك امرأة تأوي إليها؟» قال: نعم، قال: «ألك مسكن تسكنه؟» قال: نعم، قال: «فأنت من الأغنياء»، قال: فإن لي خادمًا، قال: «فأنت من الملوك»، رواه مسلم.

الفائدة الثالثة: التوسع في الدنيا هم عاجل، وحساب طويل في الآخرة.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسة عشر عامًا» رواه الترمذي، فالإنسان لا يعتر بهذه الدنيا؛ حلالها حساب، وحرامها عقاب.



٤٥- وَذُو الْقَنَاعَةِ رَاضٍ مِنْ مَعِيشَتِهِ وَصَاحِبُ الْحِرْمِ إِنْ أَثَرَى فَفَضْلَانُ

التعليق:

(الْقَنَاعَةُ) الرِّضَا بِمَا تَبَسَّرَ وَتَرَكَ مَا يُلْهِي وَيَشْغَلُ. (أَثَرَى) كَثُرَ مَالُهُ، أَصْبَحَ ثَرِيًّا.

(فَفَضْلَانُ) يَعْنِي غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِمَا عِنْدَهُ يُرِيدُ الْمَزِيدَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَنَاعَةَ تَجِدُهُ رَاضِيًّا سَعِيدًا بِمَا عِنْدَهُ وَلَوْ قَلَّ،

وَالْمُبْتَلَى بِالطَّمَعِ لَا يَقْنَعُ إِلَّا فِي الْقَبْرِ.

جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَانِيًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ».

رواه مسلم.

إِذَا نَزَلَ الْقَبْرَ وَامْتَلَأَ بِالتُّرَابِ يَبْدَأُ يُفَكِّرُ فِي الْآخِرَةِ فَقَطُّ.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «وَجَعَلَ فَقْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ؛ أَيُّ أَنَّهُ دَائِمًا يَرَى نَفْسَهُ فَقِيرًا، أَوْ يَرَى أَنَّهُ مَا يَزَالُ يَحْتَاجُ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْقَنَاعَةُ أَعْوَنُ عَلَى الزُّهْدِ وَعَلَى اجْتِنَابِ الْحَرَامِ، نَعَمْ؛ فَالدُّنْيَا تَجُرُّ إِلَى الْحَرَامِ،

وَالْمَالُ رُبَّمَا يَجُرُّ إِلَى الطُّغْيَانِ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَهُ

اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧]، وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَابْشُرُوا وَأَمَلُوا

مَا يَسُرُّكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا

بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالْفَقْرُ الَّذِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مُحْتَاجًا لِلضَّرُورِيَّاتِ فَهَذَا لَيْسَ مَمْدُوحًا، بَلْ نَبِيْنَا ﷺ كَانَ

يَسْتَعِيدُ مِنَ الْفَقْرِ كَثِيرًا، أَمَّا الْكَفَافُ فَقَدْ كَانَ يَدْعُو بِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ

كَفَافًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الفائدة الثالثة: مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى رِزْقَهُ فَلْيَقْنَعْ، وَلَا يَسْتَكْثِرْ مِنَ الدُّنْيَا، لَا سِيَّما طُلَّابَ الْعِلْمِ؛
يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَصِرُوا الْكَسْبَ وَلَوْ قَلَّتِ الدُّنْيَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَوَسَّعَ فِي الدُّنْيَا كَانَ
ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ وَقْتِهِ وَعِلْمِهِ.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التَّكَاثُرُ: ١]؛ أَي: شَغَلَكُمُ الْحِرْصُ عَلَى الْكَثْرَةِ فِي
الْمَالِ وَالدُّنْيَا وَالْوَلَدِ إِلَى آخِرِهِ.

وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ هَذَا التَّشَاغُلِ عَنْ طَاعَتِهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٩].



٤٦- حَسْبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خَلَا يَعَاشِرُهُ إِذَا تَحَامَاهُ إِخْوَانٌ وَخَلَانٌ

التعليق:

(حَسْبُ الْفَتَى) يَعْنِي يَكْفِيهِ. (عَقْلُهُ خَلَا) الْخُلُّ هُوَ: الْمُؤْنَسُ وَالْحَبِيبُ وَالْمُرْشِدُ.
(يَعَاشِرُهُ) أَي: يَعِيشُ مَعَ عَقْلِهِ كَمَا يَعِيشُ الْجَلِيسُ مَعَ جَلِيسِهِ؛ يُشَاوِرُهُ، وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ.
(تَحَامَاهُ) تَجَنَّبَهُ. (إِخْوَانٌ) أَصْحَابٌ. (وَخَلَانٌ) أَحِبَابٌ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مَنْ رَزَقَ عَقْلاً رَاجِحاً أَغْنَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَنِ الْأَعْوَانِ وَالْأَصْحَابِ؛ فَحُسْنُ التَّدْبِيرِ يُغْنِي عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَعْوَانِ، وَإِنْ ابْتَعَدَ عَنْهُ الْبَعْضُ فَدَلِكَ لَا يَضُرُّهُ، بِخِلَافِ ضَعِيفِ الْعَقْلِ فَحَاجَتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ لَا يَكَادُ يُنْجِزُ شَيْئاً إِلَّا بِمَعُونَةِ غَيْرِهِ، فَحَسْبُ صَاحِبِ الْعَقْلِ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَقْلِ.

الفائدة الثانية: الْعَقْلُ الرَّشِيدُ يُثْمِرُ الْفَهْمَ السَّدِيدَ وَالتَّصَرُّفَ الصَّحِيحَ، وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ أَصْلَ السَّعَادَةِ مِنْ كَمَالِ الْعَقْلِ، وَإِذَا كَانَ الْعَقْلُ كَامِلاً فَإِنَّ الدِّينَ يَكُونُ رَشِيداً، وَالتَّصَرُّفَ يَكُونُ سَدِيداً.

الفائدة الثالثة: الْعَقْلُ الصَّرِيحُ لَا يُخَالِفُ النُّقْلَ الصَّحِيحَ.

الْعَقْلُ الصَّرِيحُ السَّدِيدُ الرَّشِيدُ السَّلِيمُ مِنَ الْخَلَلِ لَا يُخَالِفُ النُّقْلَ الصَّحِيحَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالتَّعَالِيمَ الْإِسْلَامِيَّةَ.

فَالْعَقْلُ يُوَافِقُ التَّوْحِيدَ وَالسُّنَّةَ وَالطَّاعَةَ وَيُرْشِدُ إِلَيْهَا وَيَسْتَحْسِنُهَا، وَيَسْتَبْجِ الشُّرْكَ وَالْبِدْعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ وَهِيَ الْفُسُوقُ؛ يَعْنِي: الْخُرُوجَ عَنْ مُقْتَضَى الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ.

وَالْعَاقِلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مَنْ قَامَ بِالتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالطَّاعَةِ وَاجْتَنَبَ الشُّرْكَ وَالْبِدْعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، وَيَنْقُصُ عَقْلُهُ إِذَا نَقَصَ دِينُهُ.

٤٧- هَمَّا رَضِيْعَا لِبَانِ حِكْمَةٍ وَتَقَى وَسَاكِنَا وَطَنٍ مَالٍ وَطُفْيَانٍ

التعليق:

(لِبَانٍ) حَلِيبُ الْمَرْأَةِ أَوَّلُ الْوِلَادَةِ، أَوِ الْحَلِيبِ مُطْلَقًا. (حِكْمَةٌ) وَهِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ. (وَطُفْيَانٍ) هُوَ تَجَاوُزُ الْحَدِّ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: يُخْبِرُ أَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ اجْتِمَاعُ التَّقْوَى وَالْحِكْمَةِ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا وَجَدَتْهُ حَكِيمًا حَلِيمًا، وَالْعَكْسُ: مَنْ لَا تَقْوَى لَهُ لَا حِكْمَةَ عِنْدَهُ، كَمَا أَنَّ الْمَالَ غَالِبًا يَصْحَبُهُ طُغْيَانٌ وَكِبْرٌ وَرُبَّمَا ظُلْمٌ، وَالْفَقْرُ يَصْحَبُهُ تَوَاضُعٌ، وَهَذَا فِي الْجُمْلَةِ، وَإِلَّا فَقَدْ يَفْتَرِقَانِ عِنْدَ أَنْاسٍ آخَرِينَ بَلْ هَذَا كَثِيرٌ؛ فَبَعْضُهُمْ صَالِحٌ فِي نَفْسِهِ لَكِنَّهُ غَيِيٌّ فِي نَصْرِفِهِ؛ إِمَّا عِنْدَهُ غُلُوٌّ وَشِدَّةٌ، وَإِمَّا عِنْدَهُ تَمَيُّعٌ أَوْ سُوءٌ نَصْرِفٍ.

وَأَيْضًا رَبٌّ غَنِيٌّ وَهُوَ أَيْضًا مِنْ أَتَقَى النَّاسِ وَأَعَدَّ لَهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ طُغْيَانٌ، فَبَيْتُ الشَّعْرِ هَذَا يَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَثِيرِ وَعَنِ الْأَعْلِيَّةِ.

الفائدة الثانية: يُفْهَمُ مِنَ الْبَيْتِ أَيْضًا الطَّلَبُ، يَعْنِي: الْبَيْتُ ظَاهِرُهُ إِخْبَارٌ وَأَيْضًا قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الطَّلَبِ، أَي: الزَّمِ التَّقْوَى وَالْحِكْمَةَ فَهُمَا قَرِينَانِ لَا غِنَى لِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ. وَيَقْوَى هَذَا حَدِيثٌ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» هَذِهِ هِيَ التَّقْوَى، «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فَالْحِكْمَةُ قَرِينَةُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، كَمَا أَنَّ الضَّلَالَ قَرِينُ الْجَهْلِ وَالطِّيْشِ. وَاحْذَرِ إِنْ رُزِقْتَ مَالًا أَنْ تَتَّصِفَ بِالطُّغْيَانِ، فَهَذَا عَيْبٌ يُحَوِّلُ نِعْمَةَ الْمَالِ إِلَى نِقْمَةٍ. فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَجِدُهَا كَثِيرَةً فِي الْأَوْطَانِ وَفِي النَّاسِ.

الفائدة الثالثة: كمال العبد في كمال دينه وحكمته؛ فكمال الدين يسعد في آخرته، وكمال العقل والحكمة يسعد في دنياه، والعكس: منتهى الشقاء في الجهل والطيش، فالجهل شقاء في الدنيا والآخرة، والطيش كذلك.



٤٨- إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ فَلَهُ وَرَاءَهُ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ أَوْطَانٌ

التعليق:

(نَبَا) يَعْنِي لَمْ يُوَافِقْهُ. (كَرِيمٌ) الْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا عَزِيزُ النَّفْسِ. (مَوْطِنٌ) مَوْضِعُ السَّكَنِ أَوِ الْعَمَلِ. (بَسِيطِ الْأَرْضِ) بِمَعْنَى مُتَّسِعِ الْأَرْضِ وَجِهَاتِهَا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ سَكَنَ أَرْضًا فَلَمْ تُوَافِقْهُ طِبَاعُهَا أَوْ هَوَاؤُهَا أَوْ حَتَّى أَهْلُهَا، يَجِدُ مِنْهُمْ الْمُوَادَّةَ وَأَشْيَاءَ أُخْرَى، فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى مَوْطِنٍ تَحْصُلُ فِيهِ الرَّاحَةُ وَالْإِطْمِئْنَانُ؛ فَالْوَطَنُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ حَيْثُ يَسْلَمُ دِينُكَ وَتَسْعُدُ نَفْسُكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ وَطَنُهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِقَامَةِ دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ فِيهِ، وَجَبَ عَلَيْهِ التَّحَوُّلُ إِلَى أَرْضٍ يُظْهَرُ فِيهَا دِينُهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النِّسَاءُ: ٩٧] الْآيَةُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْ أَرَادَ التَّحَوُّلَ فَلَا يَحْمِلُ هَمَّ الرِّزْقِ وَالصَّدِيقِ، سَيَجِدُ ذَلِكَ أَيْتَمًا كَانَ، لَا سِيَّامَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ أَيْتَمًا ذَهَبَ سَيَجِدُ الْحَيَّرِينَ وَالْأَصْدِقَاءَ الطَّيِّبِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النِّسَاءُ: ١٠٠]، الشَّخْصُ يُهَاجِرُ بِنِيَّةٍ حَسَنَةٍ وَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ.

وَمِمَّا يُشَبِّهُ هَذَا الْبَيْتَ مَا قَالَهُ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجَزَ ظَاهِرٌ فَاعْتَرَبَ تَلَقُّ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلٌ

فَبِمُكْثِ السَّاءِ يُصْبِحُ آسِنًا وَسَرَى الْبَدْرُ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلَ

آسِنًا: يَعْنِي مُتَغَيَّرَ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ. وَسَرَى الْبَدْرُ؛ يَعْنِي: الْهَلَالُ كُلُّ يَوْمٍ يَزِيدُ حَتَّى يَكْتَمَلَ.

وَقَالَ آخَرُ:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا
تَفَرَّجَ هَمُّهُمُ وَانْتَسَابُ مَعِيشَةٍ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مَقَامِهِ
وَسَافِرٌ فَفِي الْأَسْفَارِ حَمْسُ فَوَائِدِ
وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَا جِدِ
بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

وَقَالَ آخَرُ:

لَا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضُ الْعِيشِ فِي دَعَةٍ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا
مِنْ أَنْ تُبَدِّلَ أَوْطَانًا بِأَوْطَانِ
أَهْلًا بِأَهْلٍ وَإِخْوَانًا بِإِخْوَانِ

وَقَالَ آخَرُ:

بِلَادُ اللَّهِ وَاسِعَةُ الْفَضَاءِ
فَقُلْ لِلْقَاعِدِينَ عَلَى هَوَانِ
وَرَزَقُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا فَيَسِيحُ
إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيحُوا

وَقَالَ آخَرُ -وَبِهِ نَخْتِمُ-:

فَأَقِمِ بِدَارٍ مَا أَصَبْتَ كَرَامَةً
وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ.

٤٩- يَا ظَالِمًا فَرِحًا بِأَعْرِ سَاعَدَهُ إِنَّ كُنْتَ فِي سِنَةِ فَالْدَهْرِ يَقْظَانُ

التعليق:

(بِأَعْرِ) بِالْقُوَّةِ وَالْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ. (سَاعَدَهُ) تَيَسَّرَتْ لَهُ الْقُوَّةُ وَالْمَالُ، فَاسْتَخْدَمَهَا فِي الظُّلْمِ، وَالظُّلْمُ هُوَ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. (سِنَةٍ) السِّنَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ وَالتَّسَاهُلِ. (فَالْدَهْرِ يَقْظَانُ) بِمَعْنَى الْأَيَّامِ تَجْرِي لَا تَقِفُ، وَلَنْ يَتْرُكَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا. **وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:**

الفائدة الأولى: مَنْ صَارَ ذَا مَالٍ وَسُلْطَةٍ وَقُوَّةٍ وَرِجَالٍ، وَاسْتَعْمَلَ ذَلِكَ فِي ظُلْمِ الْآخَرِينَ، فَهُوَ مَغْرُورٌ، يَسِيرُ بِنَفْسِهِ إِلَى الْهَاطِيَةِ؛ فَلَا تَنْسَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمِلُّ لِلظَّالِمِ ثُمَّ يَأْخُذْهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَكْمِلُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ».

الفائدة الثانية: مَنْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُ فَلْيَسْتَعْمِلْهَا فِي الْعَدْلِ، فَلْيَسْتَعْمِلْهَا فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ فِي الْخَيْرِ، فَذَلِكَ هُوَ الْعِزُّ الْحَقِيقِيُّ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، فَالْقَوِيُّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ قُوَّتَهُ فِي الْخَيْرِ.

الفائدة الثالثة: مَنْ بَدَرَتْ مِنْهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ سَوَاءً كَبِيرًا، صَغِيرًا، رَجُلًا، امْرَأَةً، إِلَى آخِرِهِ فَلْيُبَادِرْ إِلَى التَّحَلُّلِ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يُبَادِرَهُ الْعَذَابُ؛ فَإِنَّ الْمَظْلُومَ رَبُّمَا يَدْعُو بِدَعْوَةٍ تَصِلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ؛ قَالَ ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

انْظُرْ إِلَى مَا جَرَى لِفِرْعَوْنَ الَّذِي ظَلَمَ، فَجَاءَ غَرَقَ فِي النَّهْرِ. وَهَكَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ ظَلِمَ مِنْ قَبْلِ الْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ، فَفَرَّشَ النِّطْعَ لِيَقْتُلَهُ، فَرَفَعَ أَحْمَدُ يَدَيْهِ وَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ.

٥٠- مَا اسْتَمَرَّ الظُّلْمَ لَوْ أَنْصَفْتَ أَكْلَهُ وَهَلْ يَلِدُ مَذَاقَ الْمَرْءِ خُطْبَانُ

التعليق:

(اسْتَمَرَّ) بِمَعْنَى اسْتَسَاغَ. (لَوْ أَنْصَفْتَ) يَعْنِي لَوْ عَدَلْتَ وَصَدَقْتَ. (أَكْلَهُ) فَاعِلٌ «اسْتَمَرَّ». (مَذَاقٌ) بِمَعْنَى لِسَانِهِ وَذَوْقِهِ. (خُطْبَانٌ) الْحَنْظَلُ الْمُلَوَّنُ بِالْأَصْفَرِ، وَهُوَ أَشَدُّ مَرَارَةً.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مَا اسْتَسَاغَ ظَالِمٌ ظُلْمَهُ إِلَّا وَجَدَ مِنْ مَرَارَتِهِ مَا يَجِدُ أَكِلُ الْحَنْظَلِ؛ فَعَاقِبَةُ الظُّلْمِ مُرَّةٌ، وَمُظْلِمَةٌ، فَلَا تَغْتَرَّ بِإِمْهَالِ اللَّهِ تَعَالَى.

الفائدة الثانية: لَوْ أَنْصَفَ النَّاسُ لَنَظَرُوا إِلَى الظَّالِمِ نَظَرَ احْتِقَارٍ؛ لِمَا سَيَعَانِيهِ مِنْ نَتَائِجِ ظُلْمِهِ وَعَاقِبَةِ أَمْرِهِ.

الفائدة الثالثة: الْعَقْلُ يَسْتَقْبِحُ الظُّلْمَ وَيُنْكِرُهُ، فَمَنْ اسْتَحْسَنَ الظُّلْمَ فَقَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ، وَنَكِسَتْ فِطْرَتُهُ؛ لِأَنَّهُ اسْتَحْسَنَ الْقَبِيحَ، أَصْبَحَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحَيًّا؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

٥١- يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْمَرْضِيُّ سِيرَتُهُ أَبْشِرْ فَأَنْتَ بَغِيرِ الْمَاءِ رِيَّانُ

التعليق:

(الْعَالِمُ) مَنْ يَفْهَمُ أَحْكَامَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِاجْتِهَادِهِ وَبَحْثِهِ، وَهَذَا نِدَاءٌ لِعُمُومِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ عُلَمَاءَ وَطُلَّابِ عِلْمٍ. (سِيرَتُهُ) طَرِيقَتُهُ، وَلَا تُحْمَدُ السَّيْرَةُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ صَوَابًا. (رِيَّانُ) بِمَعْنَى مُرْتَوٍّ غَيْرِ عَطْشَانَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: لِيُشِيرَ الْعُلَمَاءُ وَطُلَّابُ الْعِلْمِ الَّذِينَ حَصَلُوا عِلْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِلْمًا وَاعْتِقَادًا، حِفْظًا وَفَهْمًا وَعَمَلًا، فَهُمْ فِي خَيْرٍ عَظِيمٍ وَفَضْلِ كَبِيرٍ، فَالْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاءِ، وَالْجَهْلُ أَضَرُّ مِنَ الْعَطَشِ.

الفائدة الثانية: فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى تَشْبِيهُ الْعِلْمِ بِالنُّورِ وَالْحَيَاةِ، وَفِي السُّنَّةِ تَشْبِيهُ الْعِلْمِ بِاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَبِالْمُقَابِلِ فَالْجَهْلُ ظِلَامٌ وَمَوْتُ وَعَطَشٌ وَمَرَارَةٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، «مِثْنًا» يَعْنِي: جَاهِلًا، «فَأَخْيَيْنَاهُ» بِالْعِلْمِ.

وَفِي السُّنَّةِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعِلْمُ».

وَأَيْضًا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً تَنْطَفُ السَّمْنُ وَالْعَسَلُ، فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا، فَالْمُسْتَكْبِرُ وَالْمُسْتَقِيلُ...). فَعَبَّرَتْ: الظُّلَّةُ بِالْإِسْلَامِ، وَالسَّمْنُ وَالْعَسَلُ بِالْعِلْمِ.

الفائدة الثالثة: العلم الذي تتحقق به الفضائل هو المحاط بالتوحيد والاتباع والتقوى؛ فقد ضرب الله تعالى مثل من عنده علم مع الشرك والبدع بالحمار والكلب. وضرب النبي ﷺ مثل من عنده علم وعصيان وكبائر بالشمعة تحرق نفسها وتضيء للآخرين، وهذا كله قد سبق.



٥٢- وَيَا أَخَا الْجَهْلِ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي لُجَجٍ فَأَنْتَ مَا بَيْنَهُمَا لَأَشَكَّ ظَمَانُ

التعليق:

(وَيَا أَخَا الْجَهْلِ) الجاهل الذي عنده جهل دائم. (لُجَجٍ) اللجة كثرة الماء وعمقه.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: الجاهل كالعطشان في البحر المالح الذي لا يرويه منه شيء، بل بالعكس؛ كلما شرب ازداد عطشاً، فهكذا الجاهل لو كان في سعة الدنيا، ففقره إلى العلم كفقر العطشان إلى الماء.

الفائدة الثانية: الجهل ثلاثة أنواع: بسيط، ومركب - هذان اثنان -؛

البسيط: الذي لا يفهم. والمركب: الذي يدعي العلم وهو مخطئ في تقريره.

ومن أشد الناس جهلاً مركباً أصحاب العقائد الباطلة؛ يدعون أنهم على حق وصواب وهم على بدع وضلال ورُبما شركيات.

والجهل الثالث: هو الجهل الذي يكون بمعنى قلة الحلم والصبر والتقوى؛ عنده علم أن هذا

حرام لكن ليس عنده من التقوى والصبر ما يمنعه عن هذا الحرام، فيقال: العvisان جهل؛ بمعنى: أنه قلة صبر وتقوى.

الفائدة الثالثة: المال لا يرفع مدمة ومذلة الجهل؛ مهما كان ماله يقال: عنده مال لكنه جاهل،

بخلاف العلم فإنه يدفع مذلة الفقر والنقص.

فالعلم أشرف الأحساب والأنساب. وقد كان بعض السلف يوصي أولاده يقول لهم:

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِبَنِيهِ: «يَا بَنِيَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ اسْتَغْنَيْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَمَا لَا وَإِنْ

افْتَقَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ مَالًا».

٥٣- لَا تَحْسَبَنَّ سُرُورًا دَائِمًا أَبَدًا مِنْ سَرَّةٍ زَمَنُ سَاءَتِهِ أَزْمَانُ

التعليق:

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: السُّرُورُ وَالرَّاحَةُ وَنَحْوَهَا لَا تَدُومُ، فَالْحَيَاةُ فِي تَغْيُرٍ دَائِمٍ؛ كَمَا قِيلَ:

ثَمَانِيَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا عَلَى الْفَتَى وَلَا بُدَّ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِ الثَّمَانِيَةُ

سُرُورٌ وَبُؤْسٌ وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ وَعُسْرٌ وَيُسْرٌ وَسُقْمٌ وَعَافِيَةٌ

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ، فَاسْتَعِدَّ لَهَا بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ

مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،

وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ

فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: السُّرُورُ نِعْمَةٌ وَخَيْرٌ مِمَّا لَمْ يُجَالِطْهُ مُنْكَرٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيدُّ مِنْ ضِدِّهِ

كَالْهَمِّ وَالْحَزَنِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ...». متفق عليه.

وَمَنْ أَرَادَ السُّرُورَ الدَّائِمَ الَّذِي لَا مُكَدَّرَاتٍ وَلَا مُنْغَصَّاتٍ فِيهِ فَسَيَجِدُهُ فِي الْجَنَّةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ

لِسُرُورٍ دَائِمٍ، نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ.

٥٤- إِذَا جَفَاكَ خَلِيلٌ كُنْتَ تَأْلَفُهُ فَاطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ

التعليق:

هذا البيت والذي بعده ليسا في نسخة النيسابوري، زدناهما من نسخ أخرى.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: مَنْ كَانَ لَهُ صَدِيقٌ صَالِحٌ فَلْيَحَافِظْ عَلَيْهِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ، وَيَصْبِرْ عَلَى خَطِيئِهِ وَزَلَّتِهِ، لَكِنْ إِنْ أَصَرَ هَذَا الصَّدِيقُ عَلَى الْإِتِّعَادِ فَلَا تَكْتَرِثْ لِذَلِكَ، سَتَجِدُ غَيْرَهُ.

الفائدة الثانية: إِذَا تَرَكْتَ صَدِيقًا لِسَبَبٍ مَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلِقَ لِسَانَكَ فِي غِيْبَتِهِ أَوْ ذَمِّهِ أَوْ عَدَاوَتِهِ؛ غَادِرٌ وَلَا تَعْدُرُ، صَاحِبُ بَوْفَاءٍ وَفَارِقٌ بِإِحْسَانٍ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فَالْفُرْقَةُ لَا تَغْنِي نَسْيَانِ الْفَضْلِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا الْعَدَاوَةُ.

الفائدة الثالثة: الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فَحَيْثُمَا وَجَدْتَ شَخْصًا يُعِينُكَ عَلَى الْخَيْرِ فَهُوَ أَخُوكُ.

فَارْحَلْ فَكُلُّ بِلَادِ اللَّهِ أَوْطَانُ
مِنْ كَأْسِهِ هَلْ أَصَابَ الرُّشْدَ نَشْوَانُ

٥٥- وَإِنْ نَبَتْ بِكَ أَوْطَانُ نَشَأْتَ بِهَا
٥٦- يَا رَافِلًا فِي الشَّبَابِ الْوَحْفِ مُنْتَشِيًا

التعليق:

البيت (٥٥) قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ بِرَقْمِ (٤٨).

(رَافِلًا) بِمَعْنَى مُتَبَخِّرًا وَمُعْجَبًا. (الْوَحْفِ) الْحُسْنُ وَقُوَّةُ الشَّبَابِ، وَفِي نُسخَةِ «الرَّحِبِ» وَأَظْنَاهَا تَصْغِيرًا. (مُنْتَشِيًا) يَعْنِي: سَكْرَانٌ فِي حَالِ نَشْوَتِهِ، وَالنَّشْوَةُ هِيَ أَشَدُّ حَالَةِ السُّكْرِ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الشَّبَابُ سِنُّ الْقُوَّةِ وَالْفُتُوَّةِ، لَكِنْ لَا تَغْتَرَّ بِهِ وَلَا تَتَكَبَّرْ، فَالْغُرُورُ وَالْكِبَرُ يُؤَدِّيَانِ إِلَى الضَّلَالِ، فَضِلُّ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فَتُصْبِحُ سَكْرَانًا بِالْكِبَرِ وَالْغُرُورِ كَسَكْرِ شَارِبِ الْخَمْرِ؛ فَالسَّكْرَانُ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَعْقِلُ، وَمَنْ بُيِيَ بِالْكِبَرِ وَالْغُرُورِ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَعْقِلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: عِلَاجُ طَيْشِ سِنِّ الشَّبَابِ بِالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمُرُوءَةِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ الشَّابُّ الْمُقْبِلُ عَلَى الطَّاعَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ: «وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الشَّابُّ الْعَاقِلُ مَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَمَتَى دَفَعَكَ الشَّبَابُ لِلْغُرُورِ فَذَكَّرْهُ أَنَّ سِنَّ الشَّبَابِ ظِلٌّ زَائِلٌ عَنْ قَرِيبٍ؛ كَالزَّرْعِ يَخْضَرُ حَتَّى يُصْبِحَ مَنْظَرُهُ بَهِيمًا، فَمَا يَلْبَثُ أَنْ يُصْبِحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ، فَالشَّبَابُ هُوَ حَالَةٌ مُوقَّتَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَا يَدْعُو إِلَى الْغُرُورِ.

٥٧- لَا تَغْتَرِبْ بِشَبَابٍ رَانِقٍ نَضِرٍ فَكَمْ تَقْدَمَ قَبْلَ الشَّيْبِ شَبَابٌ

التعليق:

(رَانِقٌ) صَافٍ. (نَضِرٌ) -بِالضَّادِ- يَعْنِي: جَمِيلًا وَحَسَنًا.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: لَا تَغْتَرِبْ بِشَبَابِكَ الْجَمِيلِ الْقَوِيِّ، تَذَكَّرْ أَنَّ عَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ النَّاسِ مَاتُوا فِي سِنِّ الشَّبَابِ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْكِبَرِ وَالشَّيْخُوخَةِ، وَإِذَا جِئْنَا نَعُدُّ الشَّبَابَ وَالشَّيْبَانَ نَجِدُ أَنَّ الشَّبَابَ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّهُ مَا كُلُّ النَّاسِ يَصِلُ إِلَى سِنِّ الشَّيْبَةِ.

الفائدة الثانية: عَلَى الشَّبَابِ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَإِنَّهُ يَأْتِي بَغْتَةً، لَا تَدْرِي مَتَى يَمُوتُ؛ فَاعْتَنِمْ حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، لَا تَقُلْ: مَا زِلْتُ شَابًّا؛ عُمْرِي طَوِيلٌ، وَمَا يُدْرِيكَ!

الفائدة الثالثة: كَثْرَةُ ذِكْرِ الْمَوْتِ سَبَبٌ لِدَفْعِ الْغُرُورِ، وَصَادُّ عَنِ الذُّنُوبِ، وَحَاطٌّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَعَلَيْكَ بِوَصِيَّةِ نَبِيِّكَ ﷺ الَّذِي قَالَ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ: الْمَوْتِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ بَدَأَ يَحْسِبُ حِسَابَ الْآخِرَةِ فَلَا يَغْتَرِبُ بِشَبَابِهِ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ.

٥٨- وَيَا أَخَا الشَّيْبِ لَوْنَا صَحْتَ نَفْسِكَ لَمْ يَكُنْ لِمِثْلِكَ فِي الْإِسْرَافِ إِمْعَانُ

التعليق:

(يَا أَخَا الشَّيْبِ) مَنْ لَازَمَهُ الشَّيْبُ وَهُوَ بَيَاضُ الشَّعْرِ، وَيَبْدَأُ عَادَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، وَقَدْ يَتَقَدَّمُ وَقَدْ يَتَأَخَّرُ فِي النَّادِرِ. (الْإِسْرَافِ) الْمَقْصُودُ بِهَا هُنَا الْمَعَاصِي. (إِمْعَانُ) اسْتِمْرَارٌ وَإِصْرَارٌ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ بَلَغَ الْخَمْسِينَ وَالسَّتِينَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ دَنَا مِنْ أَجَلِهِ كَثِيرًا؛ فَلَوْ أَنْصَفَ نَفْسَهُ لَمْ يُكْثِرْ مِنَ الْمَعَاصِي أَوْ يَسْتَمِرَّ فِيهَا، بَلْ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّكْوِينِ فِي الْمَوْتِ لِأَنَّهُ قَرُبَ مِنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بَيَاضُ الشَّعْرِ وَاعِظٌ وَرَاجِرٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ فَسَّرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ بِالشَّيْبِ: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فَاطِر: ٣٧]، قَالُوا: جَاءَكُمْ الشَّيْبُ.

وَيُوضِّحُ هَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي آخِرَ أَجَلِهِ، حَتَّى بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً»؛ فَمَنْ بَلَغَ السَّتِينَ فَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ أَنْ يَقُولَ: لَمْ أَجِدْ وَقْتًا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ أَوْ التَّوْبَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الْكَبِيرُ أَوَّلَى بِالطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْعِلْمِ وَذِكْرِ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ دَنَا مِنْ حِسَابِهِ، وَكَثُرَتْ الْمَعَاصِي فِي الْكِبَرِ نَذِيرٌ شَرٌّ؛ وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ...» وَذَكَرَ: «شَيْخُ زَانَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

٥٩- هَبِ الشَّيْبَةَ تَبْدِي عُدْرَ صَاحِبِهَا مَا عُدْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

التعليق:

(هَبْ) بِمَعْنَى لِنَقَرِضْ أَوْ ظَنَّ. (الشَّيْبَةُ) سِنَّ الشَّبَابِ. (تَبْدِي عُدْرَ صَاحِبِهَا) يَغْتَرُّ بِشَبَابِهِ. (يَسْتَهْوِيهِ) يَجُرُّهُ بِالْهَوَى.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: إِذَا اغْتَرَّ الشَّابُّ بِسَبَبِ شَبَابِهِ بِدَعْوَى: "مَا زِلْتُ شَابًّا، مَا زِلْتُ قَوِيًّا" وَهِيَ دَعْوَى خَاطِئَةٍ، فَمَا هُوَ الْعُدْرُ وَالِدَعْوَى الَّتِي سَيَدَّعِيهَا كَبِيرُ السِّنِّ وَهُوَ لَا يَزَالُ يَتَجَارَى فِي الْمَعَاصِي؟!

الفائدة الثانية: طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ وَغَلَبَ هَوَاهُ؛ فَإِلْإِنْسَانُ فِي صِرَاعٍ مَعَ الْهَوَى، فَمَنْ غَلَبَ هَوَاهُ وَلَمْ يَزِغْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ فَذَلِكَ هُوَ الْمُوقِفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النَّازِعَات: ٤٠-٤١].

الفائدة الثالثة: الْغَالِبُ عَلَى كِبَارِ السِّنِّ قَلَّةُ الطَّيِّسِ، لَكِنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ لَا يَزَالُ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى غَافِلًا عَنِ الْمَوْتِ؛ فَتَذَكِيرُ النَّاسِ بِالشَّيْبِ وَالْمَوْتِ فِيهِ حَيَاةٌ لَهُمْ، وَفِيهِ دَعْوَةٌ لَهُمْ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٦٠- كُلُّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا إِنَّ شَيْعَ الْمَرْءِ إِخْلَاصٌ وَإِيمَانٌ

التعليق:

(شَيْعٌ) تَبَعَ وَأَعَانَ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: بَعْدَ ذِكْرِ ذُنُوبِ الشَّبَابِ وَذُنُوبِ الْكِبَرِ جَاءَ بِهَذَا الْبَيْتِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَإِذَا وَقَعَتْ فِي ذَنْبٍ فَبَادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ.

فَمَنْ وَجَدَ عِنْدَهُ الْإِخْلَاصَ وَالْإِيمَانَ وَالتَّوْبَةَ عِنْدَ وَقُوعِ الذَّنْبِ فَلْيُشِيرْ بِمَغْفِرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

الفائدة الثانية: مَنْ غَلَبَتْ نَفْسُهُ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ فَلْيُبَادِرْ إِلَى مَحْوِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ وَلَا يَتَّقِ عَلَى الذَّنْبِ، فَلْيَعْمَلْ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

الفائدة الثالثة: مَنْ مَاتَ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي (مِمَّا هُوَ دُونَ الشَّرِّكَ) فَهُوَ تَحْتَ مِشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ.

٦١- وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبِرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

التعليق:

هَذَا الْبَيْتُ مِنْ أَجْمَلِ مَا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ.

(يَجْبِرُهُ) يُضْلِحُهُ وَيُعَالِجُهُ. (قَنَاةٌ) الْقَنَاةُ هِيَ الرُّمْحُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا أُمُورُ الدِّينِ الْهَامَّةُ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَنْ مَاتَ وَقَدْ فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا الْكَثِيرُ فَهُوَ مُعَوَّضٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ.

وَأَمَّا مَنْ فَسَدَ دِينُهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَلَا عَوَاضَ لَهُ، فَهِيَ خَسَارَةٌ وَأَيُّ خَسَارَةٍ!

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَنْ أَضَرَّ بَدِينِهِ فَلَا يَجْبُرُ هَذَا الضَّرَرَ إِلَّا التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ حَيًّا فَلْيَسْعَ إِلَى جَبْرِ هَذَا النِّقْصِ وَالْكَسْرِ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِذَا تَعَارَضَ دِينُكَ وَدُنْيَاكَ فَضَحَّ بِالدُّنْيَا مِنْ أَجْلِ الدِّينِ؛ فَلَهَا عَوَاضٌ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا تُضَحَّ بِدِينِكَ فَلَا يُعَوِّضُهُ شَيْءٌ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٨]، أَنْضَحِي بِالْقَلِيلِ مِنْ أَجْلِ الْآخِرَةِ الَّتِي نَعِيمُهَا كَثِيرٌ وَطَوِيلٌ وَأَبَدِيٌّ!؟

٦٢- خُذْهَا سَوَائِرَ امْتِثَالٍ مُهَذَّبَةٍ فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي التَّبَيَّنَ تَبْيَانُ

التعليق:

(خُذْهَا) أَيِ تَقَبَّلْهَا مِنِّي . (سَوَائِرَ امْتِثَالٍ) أَيِ: كَالْامْتِثَالِ السَّائِرَةِ، وَهِيَ الَّتِي ذَاعَتْ وَانْتَشَرَتْ لِمَا تَحْمِلُ مِنْ حِكْمَةٍ وَتَجَرِبَةٍ. (مُهَذَّبَةً) مُنْقَاةً مِنَ الْعُيُوبِ، وَهَذَا بِحَسَبِ ظَنِّهِ، وَإِلَّا فَقَدْ انْتَقَدَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَلْفَاظِ. (التَّبَيَّنَ) بِمَعْنَى الْإِيضَاحِ، فِيهَا إِيضَاحٌ لَامْتِثَالٍ كَثِيرَةٍ طَبِيعَةٍ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: خَتَمَ الْمَنْظُومَةَ بِمَدْحِهَا بِأَنَّهَا حَكَمٌ مَشْهُورٌ وَاصِحَةٌ مُفِيدَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً، وَاسْتِعْمَالَ الشُّعْرِ فِي الْخَيْرِ حَسَنٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الشُّعْرُ الْوَاضِحُ بِالْفَافِ فَصِيحَةٌ أَكْثَرُ جَاذِبَةً؛ هُنَاكَ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ فِيهَا ثِقَلٌ عَلَى

اللِّسَانِ حَتَّى فِي حِفْظِهَا صُعُوبَةٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ سَهْلَةً، لَا سِيَّمَا تِلْكَ الَّتِي تُنْظَمُ فِي

مَتْنٍ لِلْحِفْظِ.

٦٣- مَا ضَرَّ حَسَانَهَا وَالطَّبْعُ صَانِفُهَا أَنْ لَمْ يَقْلُهَا قَرِيعُ الشَّعْرِ حَسَانُ

التعليق:

(حَسَانُهَا) يَعْنِي نَفْسَهُ. (وَالطَّبْعُ صَانِفُهَا) شِعْرُهُ طَبَعَ دُونَ تَكَلُّفٍ، لِقُوَّتِهِ وَبَلَاغَتِهِ.

(قَرِيعُ الشَّعْرِ) سَيِّدُ الشَّعْرِ، وَهُوَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ.

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: يَقُولُ: لَا يَضُرُّ الْقَصِيدَةَ أَنِّي نَاطِمُهَا فَإِنَّا فِي زَمَانِ سَيِّدِ الشَّعْرِ كَمَا كَانَ حَسَّانُ بْنُ

ثَابِتٍ فِي زَمَانِهِ، أَوْ يَكُونُ الْمَعْنَى: لَا تَسْتَنْقِضُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لِأَنِّي أَنَا الَّذِي نَظَّمْتُهَا وَلَسْتُ

بِالْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ، لَكِنْ خُذْهَا لِمَا تَحْمِلُ مِنْ حِكْمٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَدَحُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ جَائِزٌ إِذَا كَانَ بِحَقٍّ، وَأَمِنْ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْغُرُورِ، وَدَعَتْ

الْحَاجَةَ لِذَلِكَ؛ فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ.

أَمَّا مَدَحُ النَّفْسِ بِدُونِ سَبَبٍ فَهَذَا يَدْعُو إِلَى الْغُرُورِ، وَالنَّاطِمُ هُنَا مَدَحَ نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرْغِيبِ

فِي قَصِيدَتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْ عُيُونِ الشَّعْرِ مَعَ سَلَاسَةِ أَلْفَاظِهَا.

وَبِهَذَا نَكُونُ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى خِتَامِ التَّعْلِيلِ وَالشَّرْحِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَرْحَمَ النَّاطِمَ، وَأَنْ يَكْتُبَ أَجْرَهُ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ جَمِيعًا لِكُلِّ

خَيْرٍ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِأَيْدِينَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ لَا تَدْعُ لَنَا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا

فَرَّجْتَهُ، وَلَا دَيْنًا إِلَّا قَضَيْتَهُ. اللَّهُمَّ اسْتَعْمِلْنَا فِي طَاعَتِكَ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى دِينِكَ، وَتَعْلِيمَ شَرْعِكَ،

يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.
